طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
لائحة القومي العربي
www.qawmi.com

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

## طلقة تنوير 47

## من التأسلم السياسي إلى ما بعد الحداثة: التفكيك والاغتراب وتأبيد التخلّف

**السيد شبل**

يَثبت بالتجربة أن الإسلام السياسي، وبشكل أخص الشق الأكثر سلفيةً والأوسع انتشاراً على مستوى الجمهور، ليس مهتماً بالتراث الإسلامي، أو بأي نوع من التاريخ في الحقيقة، فهو انتقائي لأبعد مدى، ويتعامل مع التراث بـ"مثاليّة" بمعنى أنه يعزل "حكاياته" عن السياق التاريخي والموضوعي والعلمي، فتجني في النهاية مجموعة من "الحواديت" المُوظّفة لإثارة العواطف دون أن تعرف شيئاً واحداً مفهوماً عن أي شيء. تأمل أي شخص يطالب بـ"تحكيم الشريعة" مثلاً، ثم اسأله عن أي معلومة دقيقة تخص التاريخ الإسلامي بما فيه القرن الهجري الأول، أو حتى السنوات الأولى للدعوة.. في الحقيقة هو لا يعرف شيئاً... مجرّد أفكار عامة ومشوّشة ومحدودة وأحياناً هروبيّة، كذلك كلمات مثل: العباسيين والطولونيين والقرامطة والفاطميين والموحدين والحمدانيين والبوهيين.. هي بالنسبة له "طلاسم" حقيقية، ولو توغّلت أكثر في أسماء حكام هذه الدول، ووزرائهم، ومعارضيهم، وكيفية الوصول للسلطة، ستكتشف أنها تُسمع للمرة الأولى، وهذا الأمر أيضاً يتعلق بالفقهاء أو الشعراء أو الفلاسفة أو العلماء المشاهير اسماً للتفاخر لا سيرةً للاعتبار والفهم، بالإضافة لذلك هذا الشخص ليس مهتماً بأن يعرف، ربما فقط يقرأ في مواضع الشبهات، ليرد على غيره في المباراة التي تحصل عادة بين المبشرين الدينيين والمذهبيين على الشبكة العنكبوتية. وما ينطبق على الإسلام السياسي ينطبق على عموم الدين السياسي (المسيحية، بوذية الدالاي لاما..إلخ). المسألة هي محض استثمار في العواطف، واستغلال للحساسية تجاه المقدسات الموروثة، ومزايدات أخلاقية (من الخطأ، بالمناسبة، أن يتصور البعض أن التنفير المُطلق من سماع الأغاني المصحوبة بالموسيقى شيء اختص به الوهابيون، هم ربما زادوا عن غيرهم، لكنهم ليسوا الوحيدين أبداً!).

القضية لدى هؤلاء الساسة، الذين يتحالفون مع حلف الناتو بكل بساطة، لم تكن أبداً قضية (هويّة) و(حضارة) و(تراث)، هذا هو كُحل المشروع أو قنابل الدخّان التي يفجرها بعض منظّري الإسلام السياسي للتعمية وتبرير الوجود. في الحقيقة هذا النوع من "السياسة الدينية"، هو نتاج تعطّل المشروع العربي للصعود، ولو صعد ونما واستمر لعزل هؤلاء وحاصرهم، حتى في منطلقاتهم الفكرية. وأدعي أنك لو دققت النظر أكثر ستعرف أن "التأسلم السياسي" عاجزٌ عن التجاوب مع التراث إن لم يكن عدواً له، كما هو بالضبط لا يصلح لتحقيق تقارب بين الشعوب بالاستناد إلى هذا الموروث الثقافي الإسلامي.

**طلقة تنوير 47**

**المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 نيسان 2018**

- **من التأسلم السياسي إلى ما بعد الحداثة: التفكيك والاغتراب وتأبيد التخلّف/ السيد شبل**
- **نقد نقاد "العنصرية البيضاء" ضد العرب في أفلام هوليود ووسائل الإعلام الأمريكية: هل نحن ضد الإمبريالية أم ضد تصنيفنا كأتباع من الدرجة الثانية في منظومتها؟/ إبراهيم علوش**
- **حكايتنا: تفكيك الرسالة السياسية لقناة "ناشيونال جيوغرافيك"/عبد الناصر بدروشي**
- **الصفحة الثقافية: ثنائية الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم/ طالب جميل**
- **موقع تل براك الأثري: مدينة نجار والتمدن في منطقة الخابور الأعلى/ فارس سعادة**
- **منبر حر: التطبيع مع الإمبريالية وترويض المناضلين/ صالح بدروشي**
- **تاريخيّة السّيرة (6) – التّأسيس/ محمد العملة**
- **قصيدة العدد: البكاء بين يدي زرقاء اليمامة/ أمل دنقل**
- **كاريكاتور العدد**

لمتابعتنا انظر:

لمتابعتنا على فيسبوك، ابحث عن:
لائحة القومي العربي/ الصفحة الرسمية

روابط صديقة:
موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:
arab.nationalist.moderator@gmail.com

كيف؟

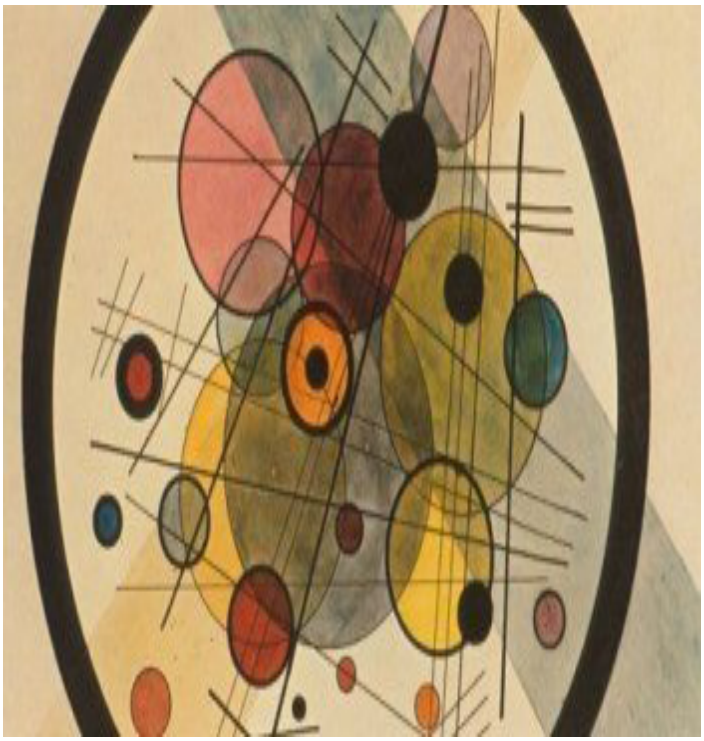

ببساطة.. القراءة المعتقدية للتاريخ (بمعنى تقييم القادة التاريخيين حسب معتقداتهم الدينية)، هي مشروع سلفي لممارسة الهدم الصريح للتراث الإسلامي ذاته.. وحينما تقرأ التراث بعيون متعصّب ديني، فأنت بالحقيقة ستجد نفسك كارهاً مجانياً لـ 99% من الفلاسفة والمبدعين والقادة الثوريين والتاريخيين، فهذا زنديق وهذا مبتدِع وهذا خارج على الحاكم وهذا ينتقد الصحابة وهذا خالف الإمام وهذا ألّف بالموسيقى وهذا فيلسوف.. إلخ. كل من تراهم عناصر إيجابية بالتاريخ ستخسرهم تبعاً لهذه الوصفة، وهذه بالضبط، أفضل خدمة لأي متعصب يميني غربي، أو مستشرق لدود. وهنا بالتحديد ستفهم لماذا يُعتبر كتاب ومؤرخون وشعراء ومسرحيون، من أمثال: حسين مروّة وهادي العلوي ومحمود إسماعيل وأحمد عباس صالح ومظفر النواب ومعين بسيسو وعبدالرحمن الشرقاوي وأمل دنقل، أخلص للتراث (بما هو تاريخ بطابعٍ إنساني ويخدم الحاضر في الأساس، وملهم له)، وأضرّ لهذا العدو الغربي، ممن تراهم اليوم بلحى وعمائم!.

ونذكّر أيضاً بما فعله السلفيون الوهابيون من هجمات على التراث الصوفي وتفجير لمساجد ومقاماتٍ، كما هناك، في سياق آخر، التركة المعمارية والفنية الموروثة في الوطن العربي عن الحضارات القديمة قبل القرن السابع الميلادي.. يمكنك أن تنظر إلى حجم التخريب الذي ألحقته بها آخر ما أثمرت شجرة السلفية الجهادية: داعش، في العراق أو سورية مثلاً، كما أن جماعات الدين السياسي، بأفكارها الوصائية والتحريمية والمزايدة أخلاقياً، تكره الفنون وتتحاشها، وبهذا تخسر تراثك الفنّي حتى في شقّه الشعبي لأنك ستكون عاجزاً عن إحيائه في ظل هذا النوع من الحكم - أي مؤامرة على التاريخ والتركة الحضارية أوضح من ذلك؟!-.

كذلك فتوهّم إمكانية أن يقوم الإسلام السياسي بمهمة التقريب بين الشعوب صاحبة التركة الإسلامية، هو التخريف بعينه، ذلك لأن هؤلاء الساسة هم في الحقيقة أصحاب معتقدات دينية تحتل الصدارة في عقولهم، وحتماً ستكفّر هذا، وستزندق ذاك، أو على الأقل ستراه مُسبقاً في مرتبة دنيوية كما أخروية أقل.. ومهما "اعتدلوا" سيبقون حاملين لهذا الفيروس، كما أنه سيتم الضغط عليهم دوماً من المتعصبين ولن يجدوا مفراً من الاستجابة وإن بنسبة ما، كما أن المسلم العادي العصري الودود ابن الأسرة (السنية أو الاثني عشرية أو الزيدية أو الصوفية.. إلخ)، الذي يهتم بشؤونه الدنيوية ومصالحه، قد يتقارب بمنتهى السهولة مع أي مسلم آخر مخالف له، وقد لا يشعر أصلاً بهذا الاختلاف، شرط أن يكون هذا "الآخر" بسيطاً في انتمائه لمعتقده الديني ولا يُعنونه، مشغولاً بهمومه الإنسانية الطبيعية، أما في حالة العنونة والبروزة والمبالغة، فسوف يحصل تحسس أوتوماتيكي وافتراق، حيث يشعر على الفور برغبةٍ في الفرار من شباك هذا "المُبشّر"، والذي يجره لجدالات "غيبيّة". وهنا يجب لفت النظر إلى أن مؤتمرات الوحدة بين المذاهب، مثلاً، التي يقوم عليها رجال الدين، هي في النهاية ليست الوصفة الصالحة للتقارب الشعبي. الشعب يظل في وادٍ بعيدٍ عن كل هذا، وهذه المؤتمرات في الحقيقة، حتى وإن قامت بدور في التقريب، فإنه يحصل بين الحركات السياسية والمؤسسات الدينية، وليس بين البشر العاديين الذين هم ليسوا أعضاء بتلك المؤسسات أو خاضعين لسلطانها، كما أنهم لا ينتمون لتلك الحركات.

على مستوى الوطن العربي، يعطِل الإسلام السياسي، بخطابه الديني المنغلق والطائفي والمذهبي، التوحّد والتآلف والتعاون (لاحظ أن الخطاب الإخواني دوماً ودودٌ نحو الانقلاب العسكري السوري الذي أنهى الوحدة في 1961، كما أنه يمجّد سيرة ناظم القدسي، وهو مشهورٌ كداعيةٍ للتحالف مع الغرب، ومنادي سابق لانضمام بلاده لحلف بغداد الاستعماري!)،

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

وثمة وضع قريب ينطبق على العلاقات بين العرب وغيرهم من الدول ذات الأغلبيات المسلمة ويبرز في تلك الحالة أكثر لأن العوامل القومية المقرّبة طبيعياً بين البشر ليست موجودة لتقوم بدورها في المقاومة وبالتالي ينجح الخطاب الطائفي والمذهبي في توتير العلاقات على المستويات الشعبية بسهولة، أما بخصوص "الأقليات المسلمة" في الدول الأخرى، فلو كانت تلك الدول بشكل أخصّ لا يرضى عنها البيت الأبيض، فسيمتد الإسلام السياسي (تحديداً النسخة الوهابية المؤخوَنة) نحوها ثم يدفع بعضاً من أبناء تلك الأقلية نحو التعصّب ثم الانعزال ثم الاغتراب عن بيئتهم وتراثهم الوطني ثم مفارقة العصر.. ثم الانتقال لمرحلة الإزعاج و"الدعشنة"، بمعنى أنه يدمّر إمكانية أن يتحول هؤلاء المواطنون أبناء الأسر المسلمة إلى جسرٍ للتقريب الحضاري واللقاء بين الشعوب، على العكس هو يكرّه أهل البلد فيهم، ويقطع الاتصال، ويخدم بحماس المصالح الغربية السياسية بأن يحوّلهم لعصابات كونترا، كما يخدم أفكار "صراع الحضارات" لصامويل هنتنجتون والمخابرت الأمريكية!. (لاحظ أن الحديث يدور هنا عن علاقات بين أبناء أسر مسلمة.. فما البال بوضع الآخرين؟!).

الأزمة في حالتنا العربية أن كثيراً من "النخب" التي تقدّم نقداً للتيارات الإسلاموية السياسية اليوم، لا تكشفها تبعاً لهذا المنطق، والسبب ببساطة أنها انعزالية ويمينية غرباوية، وتتشارك معها في كثيرٍ من الأهداف، حتى لو تصارعت معها ونافستها (هي ستصارعها بحدّة في حالٍ، فقط، رفعت سلاحها ضد "إسرائيل").

في النهاية ثمة اتفاقٌ عجيبٌ بين الطرفين على الرغبة في التمزيق وتزكية الصراعات البينية، وخدمة مصالح الآخر الغربي، والابتعاد عن الواقع كما الاغتراب العملي عن الهوية والتراث بالمعنى الحضاري والجامع والتاريخي.

هذا التناقض الذي يخدم بعضه بعضاً، ولا يلتفت إليه كثيرون، شيء شبيه بما أشار إليه عدد من المثقفين، حينما نبهوا إلى أن المشاريع السياسية الرائجة اليوم والتي تسعى إلى إعادة هندسة المجتمعات وتركيبها، وتكون الذريعة هي "احترام الفروقات والتمايزات" بين الجماعات، والمبدأ إن قُبل في ذاته باعتباره حقاً ويدعم التنوع، لكن الثمرة النهائية الحقيقة لهذا المسار هي تكريس التمييز، لا تقليله أو إلغاؤه، بالإضافة للتفكيك ومباركة الجمود والركود.. لذا فليس عبثاً أن تكون العواصم الغربية كواشنطن ولندن، ومنظماتها، هي التي تنادي بهذا النوع من "الحل"، بالتحديد (خطاب الدين السياسي، سمير أمين). بمعنى آخر، إن هذا الذي ينطلق بمبالغة من "الحق الخاص الثقافوي" لأقلية أو إثنية، هو في الحقيقة تبعاً لأجندة عمل اليوم، أولاً: يكرّس انعزالها، ثانياً: "يناضل" في ملعب آخر ليس فيه الحق بالتعليم والصحة والسكن والوظيفة والأمان.. ، ثالثاً: يخدم الأعداء ومشروعاتهم للتقسيم والاحتراب الداخلي، كما أنه يتركهم ينهبون براحة، لأنه ليس مشغولاً بهذه الأمور المادية!. هذا الشخص، الذي يفعل كل ما سبق، قد يكون آتياً من خلفية سلفيّة ويتصور أن المؤامرة عليه هي: منع هذا الحق في التسلّف، بينما هي في الواقع تستخدمه وتستحثه نحو الاستزادة.

هذا الشيء أيضاً تلمسه في التصالح الحاصل بين السلفيين العرب، والخطاب ما بعد الحداثي الغربي، وكيف أن مقولات الفريق الأخير أو بعضاً منها صارت العامود الفقري الذي يعتمد عليه السلفيون (وخاصة أولئك الذين بلا لحى)، بل أحياناً، وهنا المفارقة، يستخدمون أفكار الغرب الما بعد حداثية الناقدة بهدف الترويج لأفكارهم السلفية التي يعتبرون أن الغرب المتآمر نفسه هو الذي دفع آباءهم للافتراق عنها!!. وهم في الحقيقة، بهذا المثال لم يفارقوا التبعية الفكرية والذيليّة، ولو لحظة واحدة، بل أكدوها، وثبّتوا مركزية الآخر، وأضافوا عليها شرعنة للجمود والظلامية والخرافة. وبصرف النظر عن نقدٍ يُكال للفلاسفة الغربيين الذين روّجوا لتلك الأفكار من نظرائهم، فإن من العبث تصوير الأمر كأننا مررنا في مجتمعاتنا بفترة حديثة مكتملة فكرياً وبنيوياً، مثلاً، ونريد تخطيها لأننا انزعجنا منها ومن آثارها!، بينما مجتمعاتنا في الحقيقة لم تمر سوى بشبه حداثة مشوهة ومحدودة وغير مخططة، فتحولت لنمطٍ عشوائي تقريباً، ومشاريعنا للصعود والتجاوب مع الزمن تم بترها بفعل التدخل الأجنبي المتكرر، وتنصيب نخبةٍ حاكمةٍ تابعةٍ ومنسحبةٍ من مهامها، أما بقاء البيئات والعقليات السلفية تتنفس بهذا الوضوح إلى اليوم، فهي نتاج للداعم الأجنبي الغربي، سواء مباشرةً أو عبر تعطيل المشاريع الأخرى، وليس العكس. فالغرب، مثلاً، تآمر على تجربة عبد الناصر وثورات كاليمن وظفار بينما دعم السعودية والملكيّات العربية، وفكك الهند وفصل باكستان على الأساس الديني الذي أراده، وخرّب افغانستان بالاتكاء على ذات الأمر..، وكان صعود الإرهاب في سورية بالنصف الثاني من السبعينيات ينمو تحت بصره وبدعمه، وبالأمس القريب في 2011 نصر ميلشيات القاعدة بليبيا!. كما أن جزءاً من هذا التشوّه ناتجٌ من أن قطاعاً من الداعين إلى "التنوير" مثلاً لم يكونوا أبناء مجتمعاتهم وواقعهم بل كانوا غرباويين على مستوى المصلحة والتمويل، وهذا طبع تكتيكاتهم بالاغتراب عن الواقع ومقتضياته، وبالتالي تراجُع التأثير، كما حصل نفورٌ منهم نظراً لتبعيتهم السياسية، والإحساس الدائم بأنهم يمثلون "الآخر" لا "نحن".

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

أما اليوم، وما إن قرر فلاسفة غربيون «تخطّي الحداثة»، حتى تبعتهم من جديد «نخب عربية»، وكما العادة، باعتبارها «موضة».. وزاد الأمر بالتحالف السلفي الذي تم مغازلته عبر أشياء كذمّ العقلانية ونقد تجارب التنوير.. إلخ، لكننا هنا ندعي بأن هذا التحالف كان مقصوداً لذاته ومخططاً له كمؤامرة على المستقبل، وكذلك حتى نصل للحظة الحالية التي يدافع فيها «ليبراليون» و«تروتسكيون» بهذه الحماسة والجرأة وبلا خجل عن إرهاب فصائل مثل «النصرة وأحرار الشام وجيش الإسلام وأنصار الشريعة وولاية سيناء»..!!.

بالإضافة لما سبق، تُستخدم «ما بعد الحداثة» في الترويج المكشوف للأفكار التحت وطنية أو الدون قومية، فهي تتحول، عبر أفكارها الفوضوية والمتشككة والداعية للتفكك والـلا انسجام، إلى أجندة صريحة للتخريب والتقسيم، وهذا يبدو اليوم في مباركة نمو وبروز السلفيات الإثنية والدينية، وانتشار دعوات الانعزال والانحباس ومغادرة التاريخ.

المؤسف أن بعض «النخب العربية» التي تحللت من انحيازاتها الاجتماعية للكادحين ومن قوميتها وعالمها الثالث ونضالها للتحرر، وانسحبت من معركتها بهدف تطوير مجتمعاتها، صارت تروّج لهذه الأفكار وكأنها من خارج المنظومة الليبرالية الغربية، بينما هي في الواقع تتحرك داخل هذا الإطار تماماً بل وتحاول توفيق أمورها معه، وليست إلا ترجمةً لما يظهر كأنه انتصار لمنظومة النهب الرأسمالية الغربية.

كذلك، فإن ما بعد الحداثة مُوظّفة بدرجةٍ جبارةٍ لتدمير كل السرديات الوطنية والتقدمية في العالم الثالث خاصة. وتعتمد في هذا على قراءة التاريخ من أسفل، وعلى المبادرة إلى تفكيك الخطابات الوطنية الرائجة باعتبارها «خطابات سُلطة»، بحيث يبدو كل حاكم «جبار وطاغية»!، لا يهمها هنا السياق التاريخي لنشاط الحاكم، أو حجم ما واجهه من تدخلات خارجية، أو الصعوبات التي تحدته داخلياً، أو ما يمكن أن يكون قد أنجزه فعلياً في دفع مجتمعه للأمام، وفي إفادة مصالح عدد كبير من المواطنين، حتى مع تثبيت السلبيات المتعلقة بالاستخدام السيء للسلطة، في النهاية ثمّة مُفسّرات للأمر تمنع من التعامل مع هذه الإساءات باعتبارها «لوثةً عقلية»، بل هناك تحديات داخلية مستقلة، أو داخلية مرتبطة بالخارج تم التعامل معها ومواجهتها، ولو استُخدم العنف الـلا قانوني المفرط والمُدان طبعاً فيها. ثمة موضوعية يجب أن ترصد الإيجابي والسلبي، وهذه غائبة، كما ثمّة حكم نهائي بالانحياز أو عدم الانحياز لتلك الشخصية يجب أن يصدر. عندما تشطب «الكل» بهذه الطريقة (من إبراهيم باشا ووالده إلى جمال عبد الناصر)، ما الذي يبقى، فعلاً؟ هل تُمجّد الاحتلال؟ أم تنادي الأجنبي ليقود بلادك؟!.

عملياً وفيما يخص الشأن العربي بالتحديد، فإن (ما بعد الحداثة)، وبدرجة أكبر، تستهدف الانقلاب على الخطوة التقدمية والحداثية والتحررية العربية التي حصلت في سياق المد العالم ثالثي في أواسط القرن العشرين، وتستهدف إسقاط مشروعها وخصائصها الفكرية، وهي بالأساس خطوة أنجزت لكنها لم تُكمل مهمتها. فعوضاً عن تطوير تلك الخطوة ونقدها وتلقيحها لدفعها للأمام، يجري تدميرها أو تغييبها أو الردّة عنها بالاعتماد على طرفين بارزين اليوم: «الإسلام السياسي» و«الليبراليّة»، أو بالاتكاء على الجسور التي نشأت بين هذين المعسكرين، خاصة تلك الجسور التي تشكلت في سياق، أو كانت البنية التي انطلق منها القطار «الربيعي» العربي، مع ملاحظة أن النمط الليبرالي السائد اليوم عربياً، هو متصالح في أفكاره مع الدين السياسي وليس على نقيض معها. كما يلاحظ تصالح هذا المزيج مع التطبيع مع «إسرائيل»، ومهما فرقع من شعارات، تجده داعيةً للتعايش، ولا يملك أي قدر من الجذرية في الرفض.

«ما بعد الحداثة»، حقيقة هي: ((صورة عكسية للطوباويات الخلاقة الايجابية التي تدعو الى تغيير العالم، إنها طوباويةٌ ولكنها سلبية متحذلقةٌ تحاول تبرير واقع الحال الرجعي، وتقول بعدم إمكانية التغيير وترفض فكرة التقدم في مسيرة البشرية وتكرر (الماضي كان أفضل، الماضي كان ذهبياً، أما الحاضر فسيظل كما هو..). ومن الناحية السياسية فإن جوهر ما بعد الحداثة الذي يهاجم الدولة بفوضوية من اليمين، لأنها دولة، يمارس في الوقت نفسه عبادة الدولة في أبشع صورها الكليانية والقمعية والمعيقة للتقدم. لقد أصبحت ما بعد الحداثة لدى الكثير من المتثاقفين العرب أشبه بالموضة الجديدة وموضوعاً لاستعراض العضلات الثقافية دون كبير اهتمام ودراسة جدية..)) (مقال «حول الأسس الفلسفية لسياسات العولمة»، علاء اللامي).

طلقة تنوير
العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

# نقد نقاد «العنصرية البيضاء» ضد العرب في أفلام هوليود ووسائل الإعلام الأمريكية: هل نحن ضد الإمبريالية أم ضد تصنيفنا كأتباع من الدرجة الثانية في منظومتها؟

**إبراهيم علوش**

(نُشرت المادة أدناه بالإنكليزية في موقع «الصوت العربي الحر» Free Arab Voice في 13 آب 2001، وهي مادة أعدتها هيئة تحرير الموقع آنذاك رداً على النقد الليبرالي للمنظومة الإمبريالية الذي رأى العنصرية ضد العرب في السينما الأمريكية عائقاً أمام استيعابهم «على قدم المساواة» في تلك المنظومة، فاعتبر ذلك تناقضاً مع الشعارات الليبرالية للإمبريالية المنبثقة من فكرة التعددية و«حقوق الإنسان» فقرر أن «يحرج» الإمبريالية و«يجبرها» على أن تقبل به مواطناً «كامل العضوية» في منظومتها؛ أما نحن فنرى تعميم الأفكار النمطية العنصرية حول العرب (وغيرهم) من قِبل الإمبريالية انعكاساً لحاجتها البنيوية كمنظومة لممارسة الحرب والعدوان ضدهم لا يغيّر منها كثيراً، بل يجعلها أكثر خطراً، تقبل بعض الوكلاء العرب، أفراداً أو أنظمة، كـ«بيض» أو كـ«غربيين»، «على قدم المساواة»، في منظومتها. وتنطلق مادة «الصوت العربي الحر» من نقد كتابات جاك شاهين، لا سيما ( The TV Arab 1984)، وكتابه المرجعي والشهير (Reel Bad Arabs 2001 ) الذي يعالج طريقة تصوير العرب في السينما ووسائل الإعلام الأمريكية، والذي يمكن اعتباره معادل كتاب «الاستشراق» لإدوار سعيد في مجال النقد السينمائي إذ يعرض لأشكال «العنصرية البيضاء» ضد العرب في فضاء هوليوود. وأترجم أدناه نص مادة «الصوت العربي الحر» كجزء من الحوار الدائر حول نظرية «ما بعد الاستعمار» أو «ما بعد الكولونيالية» التي نرى أنها تُفرط في تمجيد «الفروق الثقافية» إلى مستويات ما بعد حداثية، أي تفكيكية، متجاوزةً بذلك قوانين الاقتصاد السياسي والجغرافيا السياسية، أي ظروف الإمبريالية الملموسة، التي تجعل من تلك الفروق الثقافية عرضةً للتوظيف السياسي من قِبل الإمبريالية أو من قبل مقاوميها. ويمكن عد الترجمة أدناه توطئةً لمشروع نقد نظرية «ما بعد الكولونيالية» نفسها التي باتت تعتنقها قطاعات من النخب الثقافية الغربية نفسها، كمدخل ليبرالي معولم لاستيعاب الشعوب الخارجة من ربقة الاستعمار، «على قدم المساواة» ثقافياً، في المنظومة الإمبريالية، وكمدخل لـ«تطهير» المنظومة الإمبريالية من إرثها الاستعماري والعنصري لتصبح الحروب الإمبريالية حروباً تُشن تحت يافطة «التعددية» الثقافية وغير الثقافية. وبإمكان من يرغب أن يعود للنص الإنكليزي الأصلي، الذي تشرفت بالإشراف على إعداده بالاشتراك مع باقي أعضاء هيئة تحرير «الصوت العربي الحر»، على الرابط التالي http://www.freearabvoice.org/WantingToBeWhite.html)

## الرغبة في أن تكون «أبيضَ»: نقد لجاك شاهين ونقاد طريقة تصوير العرب في هوليوود ووسائل الإعلام الأمريكية

لقد عالجت مئات المقالات وكثير من الكتب على مدى العقدين الماضيين تشويه سمعة العرب والمسلمين في صناعة الترفيه الأمريكية. وعادة ما يتم توثيق حالات القوالب النمطية للعرب باعتبارهم "مليارديرات، وراقصات شرقيات، ومفجري قنابل" في أفلام هوليوود والمسلسلات التلفزيونية بشكلٍ كاملٍ وتشريحها بسبب الدعاية العنصرية المبثوثة فيها. ومع ذلك، فإن الفكرة الرئيسية التي تتتابع كخيطٍ غير متقطعٍ في هذه المقالات والكتب هو السخط، ليس على القوالب النمطية نفسها، ولكن على إلصاقها بالعرب والمسلمين.

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

والفرق جوهريٌ هنا. فالصور النمطية للعرب والمسلمين تبدو مشكلة لكثيرٍ من منتقديها لا لأنها خطأٌ كمسألة مبدأ، بل لأنها تشكل حواجزَ في طريق الذوبان في التيار السائد، وفي أن يكونوا مثل كل الآخرين في المجتمع الغربي المتجانس. وبالتالي فإنها تنبع من الرغبة في تجنب الاضطهاد من خلال التماهي مع المضطهِد. وكما قال جاك شاهين في مقابلة له مع "إذاعة أوروبا الحرة" في 17 أيار 1999: "نحن بحاجة لرؤية المسلمين الأمريكيين على التلفاز وفي الأفلام يتصرفون مثل كل الآخرين، وحتى الآن فإننا لا نرى ذلك. إنهم غير مرئيين. وأعتقد أن ذلك جزءٌ من المشكلة. إنهم ليسوا جزءاً من التيار السائد، وليسوا مرئيين في الثقافة الشعبية، ولذلك فإنهم غير موجودين". وفي مقالٍ نُشر مؤخراً في صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" (30 تموز 2001) قال شاهين عن التلفزيون الأمريكي: "إنك لا ترى فيه عائلات عربية أبداً، ولا ترى أناساً يشبهون ويتصرفون كغيرهم".

لكن من قال أن على العرب والمسلمين أن يكونوا مثل الآخرَين في التيار الثقافي السائد ليتحرروا من نقمة القوالب النمطية؟! وما المشكلة في أن يشبهوا أنفسهم؟! والمشكلة هنا بالطبع أن "الآخرين" تعني "أبيض" أو "سائد ثقافياً".

وفي مادة أخرى سابقة، تردد الكثير من المشاعر نفسها، يكتب شاهين: "من السهل أيضاً التعرف على "عرب التلفزيون" لأنهم يبدون دوماً في ملابسَ غريبة: في زي الرقص الشرقي، أو بأغطية رأس تبدو كأنها مفارش طاولات مسروقة من مطعم، في حُجُب وأعبئة (عبايات) وجلابيب، ونظارات شمسية. باختصار، يتم تصوير العرب كأشخاص لا يبدون ولا يتصرفون مثل الأمريكيين" (Washington Report on Middle East Affairs، 4 شباط 1985، الصفحة 10).

لكن ما هذا الكلام الفارغ عن ارتداء "ملابس غريبة"؟ بل إنّ ارتداءها بفخرٍ هو الأقرب للحقيقة. ومن الذي يحق له أن يحدد معيار ما يمثل وما لا يمثل ملابس غريبة؟ ولماذا ينبغي أن يكون التشبه بالأمريكيين في المظهر والسلوك هو المعيار الذي يتوجب على كل الناس اتباعه؟ نعم، ما برحت هوليوود تصنّع صوراً عنصرية عن العرب، لا لأنها تجعلهم يرتدون ثياباً مختلفة، بل لأن ارتداءها يجعل العرب صنواً للسوء والشر. أما منتقدو هوليوود، من الناحية الأخرى، فيريدون منها أن تجعل العرب يتزيون كالغربيين، بدلاً من أن تترك العرب يرتدون الثياب التي يريدونها من دون الدلالات السلبية التي تضفيها هوليوود عليهم من خلالها.

مع ذلك ، يبدو أن الكوفية (رداء الرأس العربي) والعبايات والجلابيات (الجلباب العربي التقليدي الطويل) هي أهداف للشكوى المستمرة من قبل النقاد ذوي النوايا الحسنة في عشرات المقالات التي تمت مراجعتها لهذه القطعة، بل إنه نقدٌ يوضع على نفس مستوى أكثر الكليشيهات سلبية عن العرب. خذ مثلاً مقالة روبرت فيسك في صحيفة "إندبندنت" البريطانية (3 تشرين الثاني 1999) التي يقول فيها إن "العرب والإيرانيون الجشعون، معكوفو الأنف، الأشرار، العنيفون، النهابون، المعممون أو الذين يرتدون "الكوفية"، قد حلوا محل كاريكاتورات اليهود في (الصحيفة الرسمية للنازيين) Voelkischer Beobachter أو في (الفيلم النازي "اليهودي الأبدي") Der Ewige Jude.

لكن لو نحينا جانباً العيوب الأخرى في مثل هذا الكلام، فإن "الكوفية" هي رمز تراث مجيد، وليس هناك من شيءٍ "أخرق" في العباءة أو الجلابية. ولو كان الأمر كذلك، لماذا كان مثل هذا الرداء يعتبر رومانسياً وكيّساً حتى في هوليوود قبل السيطرة اليهودية عليها؟؟ فالفيلم الأمريكي "الشيخ" (The Sheik 1921) مع الممثل ردولف فالنتينو (بالحطة والعقال) أرسل عالماً من النساء في نوبات إغماءٍ لذيذة، وفيلم "أغنية الصحراء" (Desert Song 1929) صوّر عصبةً من الثوار العرب ضد فرنسا في صحراء المغرب بالزي التقليدي مثالاً أعلى للبطولة. ومن الواضح أن العديد من أفلام هوليوود تميل اليوم إلى تشويه كل شيء يتعلق بالثقافة العربية، ومن ذلك الثوب العربي، لكن ذلك لا يجوز أن يدفعنا للتنصل من الزي العربي التقليدي لنصبح ما لسنا عليه، بل يجب أن يدفعنا لكشف العنصرية ضد العرب ودوافعها السياسية الأساسية. إذ يبدو أن الصحراء، الجمال، القوافل، والحياة البدوية باتت كلها مصدراً آخر للحرج عند العرب التواقين للاندماج في التيار السائد الغربي، ولتجنب أذى العنصرية، من خلال التحول إلى "بيض"، أي من خلال فقدان هويتهم. على سبيل المثال، يشكو جاك شاهين، في مراجعته للسبق الهوليوودي "علاء الدين"، أن "الفيلم لا يكاد يبدأ إلا ببدوي يقود جَمَلَه عبر الصحراء (كيف يمكن أن يكون الأمر أكثر فظاعة يا ترى! – الصوت العربي الحر)، أما كلمات الأغنية الافتتاحية فتعطي لمحة عن الصور النمطية القادمة: أنا قادمٌ من أرضٍ، من مكانٍ بعيد، حيث تجوب جِمال القافلة، حيث يقطعون اذنك إذا لم يعجبهم شكلك، وإنه لأمرٌ بربريٌ، ولكن مهلاً، إنه الوطن"!

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

الدفاع هنا، كما في حالة "الكوفية"، لا ينبغي أن يكون أننا ليس لدينا كوفيات وبدو وجمال وقوافل، بل أن تلك الأشياء ليست "بربرية"، بل جميلة. وكيفما نظر المرء للصور النمطية عن العرب في الأفلام الأمريكية، فإنه لا يستطيع الابتعاد عن محاولة فرض تمجيد الثقافة "البيضاء" كمعيار قياسي للمقارنة. ومع أن البداوة ليست المجموع الكلي للثقافة العربية، إلا إنها جزءٌ من تراثنا، وقد أنتجت أشياءَ عظيمةً في الفن (الشعر) وفي الأخلاق (الفروسية). وإن جزءاً من تألق الثقافة العربية يكمن في توليفتها لثقافتي البدو والحضر، لأن كليهما تعايش وأثر في الآخر. ومع الاعتراف بالعداوة بين ثقافتي البدو والحضر، فإنه لا توجد طريقة يمكن من خلالها فصل الاثنتين فيما قدمه الإرث العربي العظيم للعالم. ومع ذلك ، تبقى النقطة أن نقاد الصور النمطية العربية في هوليوود عملوا على الافتراض اللاواعي بأن أي اختلاف في تمثيل العرب سينمائياً عن القاعدة "البيضاء" يشكل عنصرية. لكن مثل ذلك المنظور هو منظورٌ عنصريٌ في حد ذاته، لأنه يفترض أن "الأبيض" هو الطبيعي! إن هؤلاء النقاد يشعرون بالحرج لعدم كونهم "بيضاً" (بالمعنى الأوروبي)، حيث لا يوجد شيء يُحرجون منه. إنهم يحاولون الهروب من العنصرية بأن يكونوا أنفسهم عنصريين، بأن يكونوا مثل العنصريين، ولو بشكلٍ لا واعٍ. وفي بعض الحالات يتم التعبير عن تلك النزعة بالرغبة بأن يكونوا مثل "البيض" بشكلٍ صريحٍ نوعاً ما. فالنقادُ يشتكون أن العرب كثيراً ما يتم تصويرهم بشعرٍ وعينين وبشرة غامقة أو داكنة. والأشرار هم دائماً عربٌ يميلون للسمرة، أو يتحدثون بلكنة أجنبية ثقيلة. وفي نقده لفيلم "المومياء" The Mummy يقول شاهين: "إنه يصور المصريين كقتلة يتشحون بالسواد، وكفاسقين تنبعث منهم رائحة كريهة". وإحدى الشخصيات الشريرة في فيلم "المومياء يعود" The Mummy Returns، بحسب شاهين، كان الحارس الشخصي للوصي على العرش، "أسود البشرة ومهووس بقتل طفل في الثامنة من العمر ومئات من حراس إمحوتب غير الكفوئين و الذين يمكن التخلص منهم".

وقد اشتكى شاهين وآخرون، بعد تفجيرات مدينة أوكلاهوما في نيسان 1995من أن "مذيعي الأخبار التلفزيونية عمموا بشكلٍ أرعن بعد تفجيرات أوكلاهوما ستي عام 1995 أن وكالة المباحث الفيدرالية تبحث عن ثلاثة ذكور، اثنان منهم "شرق أوسطيان بشعرٍ ولحية داكنتين" (من مقالة "لوس أنجلوس تايمز" أعلاه). كما أن الشيخ العربي تم تصويره كشخص خبيث، معكوف الأنف، غير حليق، ويتحدث بلكنة ثقيلة، بحسب جاك شاهين في نقده لفيلم استديو ديزني "علاء الدين". كما كتبت لوري غودشتاين في صحيفة "نيويورك تايمز" في 1 تشرين الثاني 1998: "إن الممثل العربي-الأمريكي سيد بدرية، بلحيته الداكنة ولكنته الأجنبية، ليست لديه مشكلة بإيجاد عمل في هوليوود، فقد بات ينتقي الأدوار انتقاءً، كإرهابي، أو مختطف طائرات أو أشخاص، أو مجاهد إسلامي"!

مرة أخرى، تتمحور المشكلة حول تصوير العربي كأسمر وذي لكنة، لا بتصوير هوليوود للسمر ذوي اللكنة كشرٍ مستطير. الحل: دعوا هوليوود تصنّع المزيد من صور العرب ذوي البشرة الفاتحة اللون ممن يتحدثون باللكنة الأمريكية. والأفضل هو جعل هؤلاء جزءاً من المؤسسة، من النظام. على سبيل المثال، أُعطيَ الممثل العربي-الأمريكي طوني شلهوب دور ضابط في وكالة المباحث الفيدرالية في فيلم "الحصار" The Siege حيث يتم اختبار ولائه بعد اعتقال السكان العرب في منطقة بروكلين في نيويورك وسَوقهم إلى معسكر اعتقال كإجراء وقائي لـ"مكافحة الإرهاب". فماذا كانت ردة فعل جاك شاهين (في 10 تشرين الثاني 1998) على موقع CNN؟ فقد نُقل عن شاهين قوله: "شخصية شلهوب تمثل "اختراقاً" بالنسبة لهوليوود، ولكن ليس بما يكفي لموازنة الصور النمطية السلبية للعرب في فيلم "الحصار" نفسه وغيره من الأفلام على مدى عقود". اقرأ: نحتاج المزيد من العرب ممن يلعبون أدواراً مناصرة للنظام أو جزءاً من التيار السائد! ولكن لمَ لا يستطيع العرب أن يكونوا "جيدين" بشروطهم خارج مؤسسة النظام أو التيار السائد؟ ذلك هو السؤال الحقيقي.

تمت مكافأة الممثل سيد بدرية بالطبع على خدماته بدور «طيار عربي بطل» في فيلم «يوم الاستقلال» Independence Day عام 1996، الذي تقوم فيه الحكومة الأمريكية بإنقاذ العالم. لكن لكي نكون منصفين، كانت هناك أفلام هوليوودية تصور الشخصيات العربية كسود البشرة، وذوي لكنة أجنبية ثقيلة، بطريقة إيجابية، ومن الأمثلة عليها شخصيات عربية لعبها أمثال مورغان فريمان في فيلم «روبن هود: أمير اللصوص»، وأنطونيو بانديراس في فيلم «المحارب الثالث عشر». لكن بدلاً من التمسك بتلك الأمثلة، يشتكي النقاد من مجرد تصوير العرب كسمر البشرة أو كثقيلي اللكنة، فيما العديد منا، في الواقع، هم سمر البشرة وثقيلو اللكنة (باللغات الأجنبية)، ولا نرى في ذلك أي مشكلة من أي نوع.

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

وحتى بعض نقاد هوليوود الأكثر جرأةً يقعون في مثل هذا المطب، مثلاً في مقالة بعنوان "كيف تعزز السيطرة اليهودية-الصهيونية على صناعة الأفلام والتلفزيون الأمريكي التحيز ضد العرب؟" The Journal of Historical Review, Sept.-Oct. 1998 Vol. 17, No. 5، يستكشف الدكتور عبد الله سندي مطولاً موضوعاً حساساً يتجنبه النقاد الآخرون، أي القبضة اليهودية-الصهيونية على هوليوود. ومع ذلك، فحتى هو يصر على اعتبار العرب "بيضاً": "على الرغم من تصنيفهم رسمياً من قبل الوكالات الحكومية الأمريكية على أنهم "من العرق الأبيض" أو "قوقازيون" Caucasian، فإن العرب (ولا سيما الرجال العرب) يتم تصويرهم أحياناً في التلفزيون الأمريكي وفي الأفلام السينمائية كزنوج سود البشرة، مما يؤدي إلى تعزيز صورة ازدرائية للعرب كـ"زنوج رمال" " sand niggers"، كما كتب الدكتور سندي، و"زنوج الرمال" مصطلح عنصري تافه يُطلقه الغربيون أحياناً على العرب.

المشكلة بالطبع هي أن مثل هذه المرافعة، المتفشية بقوة بين العرب في الولايات المتحدة، تشبه أو تحمل الأحكام المسبقة ذاتها التي تحاول أن تعرّيها، إذ بدلاً من مهاجمة تلك الأحكام المسبقة (مثل "زنوج"، عادات الأكل واللباس، "الإرهاب"، إلخ...)، فإنها تحاول أن تشير فقط إلى أنها لا تنطبق على العرب، أو على الأقل لا تنطبق عليهم جميعاً! باختصار ، تحاول تلك المقاربة أن تشير إلى أنه على الرغم من وجود العرب الذين يناسبون القوالب النمطية، فإن هناك عرباً "محترمين" أيضاً. في الواقع، لا يهم ما هو العرق الذي ننتمي إليه، وكيف تعدّنا الحكومة الأمريكية عرقياً، فتلك مسألة لا يجوز أن تكون قصة أصلاً. فنحن من نحن وفخورون بذلك. والعرب عموماً "ساميون" (مع التحفظ على عدم دقة مثل هذا التصنيف العرقي أيضاً)، لكنهم أيضاً خليطٌ من الأشقر والأسود. فلا العرب ولا المسلمون نقيون عرقياً، ولا القومية العربية هوية عرقية.

وهناك من قد يجادل، من ناحية أخرى، أن مهاجمة جميع الأحكام المسبقة في آنٍ معاً هو تكتيكٌ غير فعالٍ، فيمضون على الشكل التالي: "لا أبيّت عنصريةً ضد السود، ولكن حتى أولئك العنصريين الذين يفعلون، يجب أن يقبلوا أننا لسنا سوداً"، أو "لا يمكننا تغيير الطريقة التي يفكر بها الأمريكي العادي، ولكن علينا أن نحاول أن نظهر له، حتى في إطار طريقة تفكيره ذاتها، أن التحيزات ضد العرب غير عقلانية"، إلخ... لكن هذا مجرد خطأ واضح. و " الصوت العربي الحر" تقاتل بالضبط ضد مثل هذا النوع من "الحكمة التكتيكية". فقبول منطلقات خصمك العقائدية من أجل أن تسهّل عليه تقبلك شخصياً يؤدي فقط إلى تجريدك من السلاح، والفائدة المشكوك بأمر تحصيلها على المدى القصير من جراء الإقرار بـ"بديهيات" الخصم ستكون أكثر من معادلة للارتباك الذي تنشره في معسكرك الخاص، وللنفور الذي يسببه ذلك عند حلفائك المحتملين، والأهم، لفقدانك لجوهرك الخاص. وفي كلتا الحالتين، فإن توصيف العرب بأنهم "زنوج رمال" ينهل من معين نبع آخر هو العنصرية ضد السود، وضد كل ما ليس "أبيض"، والدفاع ضده لا يكون بالإصرار أننا لسنا سوداً، بل بمعارضة كل أشكال العنصرية، سواءٌ ضد العرب أم ضد الشعوب والأعراق الأخرى.

الغائب في نقد طريقة تصوير العرب في هوليوود أيضاً هو التحليل المعمق للخلفية السياسية للعنصرية ضد العرب في الأفلام والتلفزيونات الأمريكية. فهوليوود لا تعيش في فراغ سياسي، ولا يرتكز تحيزها ضد العرب بصورة بحتة إلى السيطرة الصهيونية عليها. على العكس من ذلك، تخدم الصور النمطية العربية وظيفةً سياسيةً محددة، إذ ترتبط القوالب النمطية العربية ارتباطاً وثيقاً بأهداف نظامي العالم القديم والجديد في الوطن العربي، وعادة ما تسير الحرب، لا سيما الحرب من أجل إخضاع شعب، جنباً إلى جنب مع حربٍ دعائيةٍ ضد ذلك الشعب، فالظالم يجب أن يبدو عادلاً، والطريقة المعتادة هي شيطنة ضحية العدوان. وعلى مدى نصف القرن الأخير، تعرض الشعب العربي لعدوان متواصل من قبل الولايات المتحدة وحليفتها، الصهيونية، ولتبرير مثل ذلك العدوان تم إطلاق آلة دعاية هائلة ضدهم. وتلاحظ لوري غودشتاين (المذكورة أعلاه) في هذا الصدد: "بعد سنواتٍ من الاختفاء الفعلي، يجد العرب-الأمريكيون أخيراً الشهرة في أفلام هوليوود، إنما كإرهابيين وأوغاد... وهم ليسوا سوى أحدث حلقة في سلسلة طويلة من المجموعات العرقية والجنسيات المسبوكة في أدوار نمطية للغلام السيئ، من الهنود الأميركيين إلى الألمان إلى اليابانيين والأميركيين الأفارقة إلى الروس"، وتضيف: "لقد عكست كل مجموعة من الأشرار العناوين الرئيسية ومخاوف عصرها، وكلٌ منها تقادم مع تغير تلك العناوين، والآن، مع تحطم الذرائع لمعاداة الاتحاد السوفياتي وفقدان كائنات الفضاء الخارجي لرونقها، أصبح العدو السينمائي الجديد هو المتطرف الإسلامي".

لنأخذ على سبيل المثال «الوكالة» The Agency، وهو سلسلة جديدة لمحطة CBS تبث في نهاية صيف 2001 يفترض بها أن تمجد «الدور البطولي لوكالة المخابرات المركزية CIA».

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

هذه السلسلة تفتتح مع عميل في وكالة المخابرات المركزية يعطينا إحاطة بشأن الإرهابيين "الذين يؤدون الحرب المقدسة" ضد الولايات المتحدة وأصدقائها، وما تبقى من الحلقة يظهر أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية تقاتل من أجل هزيمة مؤامرة من قبل "إرهابيين" عرب (www.informationtimes.com, August 2, 2001). ألا يهدف مثل هذا المسلسل إلى خدمة نهاية سياسية محددة كدعاية، فضلاً عن كونه انعكاساً لأجندة سياسية حقيقية؟! مع ذلك، يظهر شاهين المفاجأة لأن وزارة الدفاع في حكومة الولايات المتحدة وقوات البحرية الأمريكية تعاونت مع هوليوود في عشرات الأفلام المعادية للعرب. وفي نقده لأحد هذه الأفلام، "قواعد الاشتباك" The Rules of Engagement، كتب شاهين: "فلنفكر في أفلام أخرى تظهر الأمريكيين يقتلون عرباً مثل " أكاذيب حقيقية"( True Lies 1994)، و"قرار تنفيذي"( Executive Decision 1996)، و"ضربة الحرية"(Freedom Strike 1998)، إذ قدمت عدة وكالات حكومية أمريكية، مثل وزارة الدفاع ومكوناتها – الجيش، المارينز، البحرية، وحتى الحرس الوطني – مساعدات تقنية لتلك الأفلام. وقدم مكتب نيويورك لوكالة المباحث الفيدرالية FBI المساعدة لمنتجي فيلم "الحصار" (The Siege 1998)، وهو فيلم يظهر أمريكيين من أصل عربي، وعرباً مسلمين، يهاجمون منطقة منهاتن في نيويورك... فما الذي يجري هنا؟ ولماذا يتعاون المسؤولون الحكوميون الأمريكيون مع منتجي هوليوود الذين شرعوا عن سابق إصرار باستهداف بلدان عربية حقيقية، وصديقة، وباستهداف العرب والمسلمين الأمريكيين الذين تسهم الضرائب التي يدفعونها بتمويل موازنات الوكالات الحكومية الأمريكية؟"، كما يتساءل جاك شاهين ببراءة! (The Washington Report on the Middle East, حزيران، 2000، صفحة 15).

لكن من الواضح أن جاك شاهين لا يتساءل بجدية كافية عن ماهية الروابط بين أهداف الحكومة الأمريكية في الوطن العربي من جهة، والتصوير السلبي للعرب والدول العربية في الأفلام والتلفزيون الأمريكي من جهة أخرى. فمع امتداد ذراع هوليود بعيدة المدى إلى دور العرض والقنوات التلفزيونية حول العالم، لا تبرر مثل هذه الأفلام المعادية للعرب الهجمات ضد دول مثل العراق وليبيا والسودان للجمهور الأمريكي فحسب، بل للجمهور المعولم، وحتى للعرب أنفسهم. ومع ذلك، فإن نقاد صور هوليوود للعرب والمسلمين يسقطون في الفخ ذاته مراراً وتكراراً. يفكرون: دعونا ندين الإرهاب، ونصر على أننا لسنا إرهابيين. فهم لا يفكرون في سبب ظهور العلامة "الإرهابية" أساساً، وفي الغايات السياسية المحددة التي تخدمها. هدفهم الوحيد هو أن يكونوا مثل "كل الآخرين".

لكن السعي للانتماء للتيار السائد والحصول على التقبل منه يمكن التجاوب معه بسهولة فائقة عند الضرورة. فلنأخذ على سبيل المثال "رجل الرئيس: الأرض صفر"، وهو عرض آخر من شبكة CBS مع بطل أفلام الأكشن تشَك نوريس الذي يلعب دور العميل السري الذي يشتغل مع البيت الأبيض. هدفه؟ إيقاف "إرهابي إسلامي" مصمم على مسح مدينة أمريكية بجهاز نووي. وفي "تنازل" للمشاعر الإسلامية، قالت محطة CBS أنها وافقت على إدخال شخصية مدعٍ عامٍ عربي-أمريكي في النص (www.informationtimes.com آب 2 2001)، فإذا أردت أن يتم قبولك في التيار السائد كعربي أو كمسلم، فإن عليك أن تكون جزءاً من خطط الحكومة الأمريكية لمحاربة الإرهاب عالمياً مع تشَك نوريس!

بالطبع نحن لا نمزح، وجاك شاهين يفهم هذه النقطة أيضاً، حتى لو تجاهل الصلات السياسية بين دفع هوليوود لمحاربة الإرهاب العربي والإسلامي من جهة، وأهداف الحكومة الأمريكية في الوطن العربي من جهة أخرى. فمن أجل استرضاء التيار السائد، تحدث شاهين بلغة، وسار مسيرة النظام أو المؤسسة الحاكمة عندما تعلّق الأمر بالسياسات الأمريكية في الوطن العربي. فلنقرأ ما يلي كما هو، من دون أي تدخل أو تحرير من قبلنا: "كثيراً ما تتم مقابلة شاهين للتعليق على الوضع المتفجر في الشرق الأوسط. لقد سافر شاهين إلى المنطقة في مناسبات عديدة. تلقى منحتين من مؤسسة فولبرايت-هيز لتدريس الصحافة في الجامعة الأردنية والجامعة الأمريكية في بيروت، وذلك تحت رعاية وكالة معلومات الولايات المتحدة الأمريكية US Information Agency، كما يقدم شاهين ندوات لمسؤولين حكوميين وصحفيين في الشرق الأوسط". ومن الواضح طبعاً أن وكالة معلومات الولايات المتحدة هي ذراعٌ استخباريٌ للدولة الأمريكية، كما يستطيع أن يجد من يبحث على الإنترنت بسهولة.

نتابع: "قال شاهين أنه لا يرتاح في التعليق على السياسة الخارجية الأمريكية في المنطقة، لكن الاستفسارات تأتي، بالرغم من ذلك. وقد قابلته صحيفة St. Louis Post-Dispatch في كانون الثاني، بعد فترة قصيرة من تفويض الرئيس جورج بوش القيام بضربات عسكرية ضد العراق،رداً على استفزازات صدام حسين في الكويت المجاورة وانتهاكه لقرارات مجلس الأمن بعد حرب الخليج".

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

"وأضاف شاهين أنه فاجأ بعض زملائه بموقفه المتشدد ضد صدام حسين. فقد وصف العمل ضد العراق بأنه "الشيء الصحيح لعمله" للحفاظ على المصالح الأمريكية في المنطقة. في الآن عينه، علق شاهين بأن ذلك العمل الأمريكي من المرجح أن تكون له نتائج عكسية، لأنه قد يؤذي التحالف الهش مع جيران صدام حسين العرب، ولأنه يمكن أن يعزز صورة صدام حسين الذي لا يقهر في بلده". "إني أدعم ما قمنا به لأنني لا أريد أن أرى صدام حسين يؤذي أشخاصاً أبرياء، سواءٌ كان أكراداً أم إسرائيليين" أم سعوديين"، كما قال شاهين، "وصدام ابن (...) مستبد ولا يرحم. وهو عربي، لكنه ليس ممثلاً للعرب".
http://www.webster.edu/~corrigdh/SJR.html#shaheen

ونحن نرفض عادةً الحط من مستوى "الصوت العربي الحر" باقتباسات من خطاب مؤيد للإمبريالية من مثل هذا العيار المنحل، إنما كان علينا أن نثبت النقطة المتعلقة بالصلة بين أهداف الحكومة الأمريكية في الوطن العربي وصور هوليوود عن العرب، من فم الحصان نفسه، الذي كان يتعجب لماذا تساعد وزارة الدفاع وقوات المارينز بإنتاج مثل هذه الأفلام المناهضة للعرب في هوليوود!!

إن الكثير من نقاد الصور السلبية عن العرب في هوليوود، مثل شاهين، ليسوا ضد العنصرية ولا ضد الإمبريالية. فاعتراضهم هو أنهم لا يحظون بقطعةٍ منها. إنهم يدينون "الإرهاب" و"الهامش المتطرف" على أمل أن يصبحوا جزءاً من النظام. لكن مجدداً، ما هو "الإرهاب"؟! ومن الذي يقرر ما يشكل وما لا يشكل إرهاباً؟! أليس قتل مئات آلاف الأطفال العراقيين بسلاح العقوبات في محاولة عقيمة لفرض تغيير النظام العراقي، إلى آخر أكثر مطواعيةً مع إملاءات الولايات المتحدة، إرهاباً؟! أليس دعم الصهيونية إرهاباً؟! أليس تدمير المصانع الدوائية في السودان إرهاباً؟! أليس قصف ليبيا إرهاباً؟! في الواقع، إن الإرهاب هو إرهابٌ في عين الناظر فحسب، ولذلك فإنه فعلياً تعبيرٌ بلا معنى. الصهاينة الذين يستهدفون الأفراد بالاغتيالات من المروحيات بأسلحة طويلة المدى لا يعتبرون إرهابيين، أما الفرد الذي يضحي بحياته لتفجير قنبلة في الصهاينة فهو إرهابي! أليس الفرد الذي يقاتل من أجل تحرير وطنه من الاحتلال مقاتلاً من أجل الحرية؟ وكم حركة تحرر تمكنت من الانتصار من دون قدرٍ معين من المقاومة المسلحة؟ تلك هي الأسئلة الحقيقية التي تهدف صور هوليوود عن العرب أن تحجبها، وبعض نقاد تلك الصور هم جزء من مسرح الأقنعة.

استنتاج: إن مسعى تقويض التحيزات من دون مهاجمتها رأساً يظهر سوء فهمٍ عميق لأساسها السياسي. فإذا فُهمت هذه الأحكام المسبقة كبنى عقلية محض تسبب السلوك المعادي للعرب من تلقاءِ ذاتها، فإن المرء قد يختار شن هجمات معزولة ضد مظاهر محددة منها، من أجل أن يدمرها، وأن يدمر بالتالي السلوكيات التي تنبع منها. أما إذا فهِم المرء هذه التحيزات كعوارض جانبية للهجمة الحقيقية على الوطن العربي، وبأنها بالتالي نتائج، لا أسباب السلوك المعادي للعرب، فإنه يصبح من الواضح أن تلك الأحكام المسبقة لا يمكن قتالها مباشرة إلا في إطار المعركة من أجل التحرر العربي. إننا لا نستطيع أن نقطع الأغصان فقط، فما دامت الجذور سالمة، فإنها ستولد المزيد من الأغصان، لذلك بدلاً من التبرير بأن العرب ليسوا جميعاً "إرهابيين"، وبأن هناك إرهابيين يهوداً أكثر بكثير، فإن علينا أن نفسر الفرق بين نوعين من الإرهاب: أحدهما سلاح بيد المضطهَدين الذين يقاتلون من أجل تحررهم، والآخر سلاح بأيدي المضطهِدين الذين يقاتلون من أجل استمرار الاضطهاد. فبدلاً من قبول مفاهيم العدو التي تستخدم لإخفاء الواقع (العنف / اللاعنف ، الإرهاب / مكافحة الإرهاب ، الحرب / السلام) ، يجب أن نطور أفكارنا من أجل توضيح حقيقة الواقع (القمع / التحرير).

طاقة تنوير

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

## حكايتنا: تفكيك الرسالة السياسية لقناة "ناشيونال جيوغرافيك"

**عبد الناصر بدروشي**

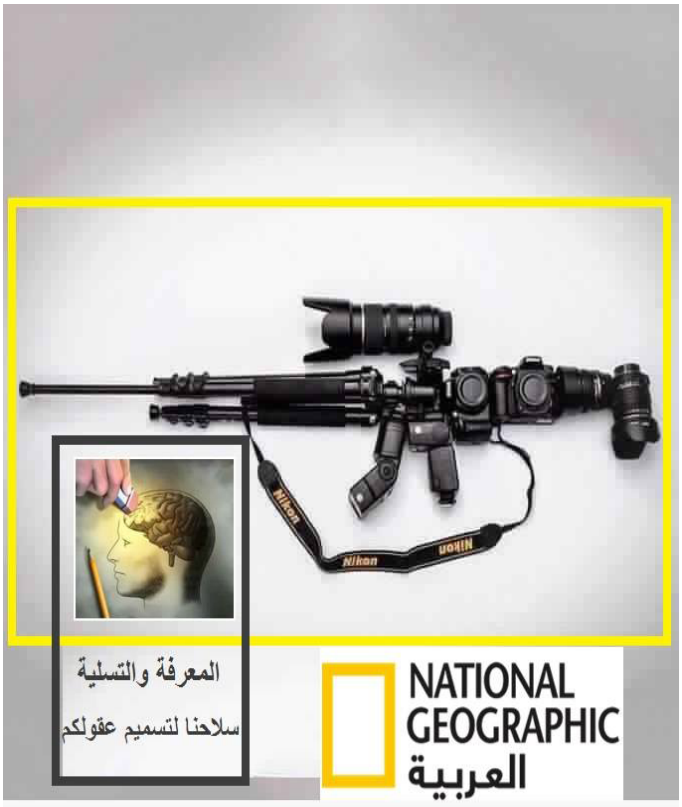


نعلم جيداً أن وراء ميلاد أي قناة تلفزيونية رسالةً ما وخطاً تحريرياً معيناً يضعه صحفيو القناة بما يتماشى مع رؤية الباعثين، خاصة عندما تكون قناة تلفزيونية بإمكانات ضخمة وعالية الجودة وتضم في صفوفها عاملين على درجة عالية من الحرفية وفق المعايير العالمية والذي يشكل مجموع أجور العاملين فيها فقط ثروة دون احتساب كل الموارد، فنعلم حينها أن من أنفقوا واستثمروا فيها هم أصحاب مشاريع يضعون أيديهم على أحد أهم أدوات صناعة الرأي وأكثرها تأثيراً.

ومن السذاجة الاعتقاد أن الهدف الرئيسي وراء بعث هذا النوع من القنوات هو التسلية ونشر الثقافة والمعرفة إلا في حال تم انشاؤها في سياق مشروع نهضوي تقدمي.

"حكايتنا".. هو عنوان لمسلسل وثائقي مكون من ستة أجزاء يقدمها الممثل الأمريكي الشهير والحائز على جائزة الأوسكار "مورغان فريمان" تبثه واحدة من أكثر القنوات التلفزيونية الناطقة باللغة العربية مشاهدةً على امتداد الوطن العربي، والتي قد تبدو للوهلة الأولى قناة وثائقية ترفيهية لا علاقة لها بالسياسة من قريب أو من بعيد.

فكرة البرنامج حاضرة في العنوان بقوة، وهي تتناول حكاية الجنس البشري والبحث في الروابط المشتركة التي تعرّف الإنسانية.

في الحلقة الأولى يقوم معد البرنامج بتصوير الحروب والمجازر البشعة التي عانت منها "الإنسانية" على أنها مسؤولية جماعية.. أي مسؤوليتنا نحن البشر نتقاسمها جميعاً، وإن بدرجات متفاوتة، ولا خيار أمامنا سوى إحلال السلام وإيجاد صيغة معينة للتعايش.

ينطلق البرنامج في الجزء الأول بسرد حكاية قبيلتين صغيرتين تتشاركان المرعى في منطقة نائية في جنوب إثيوبيا تحاربتا لفترة طويلة بسبب شح الموارد الطبيعية، ويقوم شابٌ أثيوبيٌ بسرد المأساة التي عاشها بعد مقتل عدد من أفراد أسرته على أيدي رجال القبيلة الأخرى، وكيف انتشر القتل بين القبيلتين حتى قرر العقلاء في كلا الطرفين إيقاف هذا النزيف.

يعتبر مقدم البرنامج أن فكرة التناحر على الموارد الطبيعية بين البشر أمرٌ حتميٌ وجزءٌ من دورة الحياة وأن أفضل ما يمكننا فعله كبشر أينما كنا هو التأسي بالقبيلتين وإحلال السلام وإيجاد توازن بين الحرب والسلام بين الاطراف المتناحرة.

وهذا في الواقع تسطيحٌ سخيفٌ لقصة الحروب والصراع في التاريخ البشري، والمقاربة التي تطرحها القناة مبنية على مغالطات منطقية لا بد من توضيحها.

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

أولاً، لا يمكن اجتزاء الحلقة من السياق التاريخي والظرفية التي يعيشها الشاب العربي المستهدف من البرنامج أساساً، حيث يأتي بث البرنامج في توقيتٍ تشهد فيه أمتنا صراعاً مع الإمبريالية، أو بعبارة أدق تتعرض أمتنا العربية اليوم إلى عدوانٍ إمبريالي يهدف إلى إخضاعنا والإمعان في نهب مواردنا.. ولا يفرق "فريمان" بين السلام الذي يجب أن يحل بين قبيلتين متناحرتين تشتركان في رقعة جغرافية محددة، أي بين شركاء في الوطن، وبين "السلام" الذي يجمع الضحية وجلادها والذي يسمى خضوعاً بلغة أوضح.

كما يجب أن نفرق جيداً بين المجتمعات التي تصارعت فيما بينها قديماً بسبب شح الموارد وبسبب ترسيم مناطق النفوذ، وبين الإمبريالية العابرة للقارات والتي تعمل على نهب مقدرات الشعوب الأخرى، ليس بهدف البقاء وانما بهدف إذلال الآخر وشطبه.

ويفوت فريمان أن يبين السبب وراء تناحر القبائل الإفريقية، وهل شح الموارد عندهم إلا بسبب نهب كنوزهم من قبل الاحتلال الغربي لبلدانهم؟!

قد يخيل للقارئ أن عملية تشريح الرسائل السياسية المبطنة لبرنامج "حكايتنا" هو شطحة من شطحات "نظرية المؤامرة"، لذلك سنسير مع "حكايتهم" حتى النهاية.

قبل الحديث عن الطائرات الأمريكية بدون طيار مباشرة، وتحديداً ابتداءً من الدقيقة التاسعة من الحلقة الأولى يقول معد البرنامج:

"في جميع أنحاء العالم نواصل الصراع على الأرض والموارد الطبيعية الأخرى.. كما كنا نفعل ذلك لآلاف السنين.. كما أننا نتوق للسلام بسبب أهوال المعركة".

جملة قد تبدو بسيطة جداً لعقل شاب عربي غير مدرب على تفكيك الرسائل المشفرة وغير المدرك لأساليب الأدوات الناعمة في تخريب العقول عبر تحريف المفاهيم واللعب بالمصطلحات.

ما يعنيه فريمان بهذه الجملة القصيرة والذي لم يقله، وهو المعنى الذي يعلق في ذهن الشاب العربي غير المدرب والذي يعاني خللاً في انتمائه بسبب التجهيل المسلط عليه، هو الآتي:
"في جميع أنحاء العالم تواصل الإمبريالية محاولاتها لإخضاع الشعوب والسيطرة على مقدراتها.. ولتجنب أهوال المعركة علينا أن نجد صيغة ما للسلام كأن نتقاسم ثرواتنا مع من يحتل أرضنا أو أن نفرط فيها.. والمهم أن نجد صيغة ما كما فعل الإثيوبيون".

يكمل فريمان حديثه عن الطائرات بدون طيار التي استخدمتها الولايات المتحدة الأمريكية لاستهداف أكثر من 4000 "مجرم" مشتبه به، وقد قتلت هجمات تلك الطائرات أكثر من 6600 شخص، طبعاً ما يصل إلى لاوعي المشاهد هو الآتي:
"وجود مجرمين وفق المفهوم الأمريكي يشرع استخدام القوة من أجل حماية العالم من شرورهم.. وبعملية حسابية بسيطة تبين لنا أرقام فريمان أن الضربات الجوية كانت ناجحة نسبيا أي أنها ناجحة بنسبة 70%".

بأسلوبٍ غايةٍ في البراعة، وبحنكة إعلامية كبيرة، يوهمنا مقدم البرنامج أنه مناهض لسياسات الولايات المتحدة الأمريكية، وأنه ضد قتل الشعوب، ويستضيف مشغلاً سابقاً للطائرات، وناقداً "عنيفاً" لبرنامج الطائرات بدون طيار كما يصفه.

يخبرنا الجندي الأمريكي مشغل الطائرات المفعم جداً بالإنسانية عن استهجانه لسياسات بلاده في استخدام الأسلحة الفتاكة وعن شعوره بالذعر والندم لتحويله طفلاً بريئاً إلى أشلاء! ويكمل مشغّل الطائرة حديثه موضحاً عجزه عن تغيير سياسات قادته، كما هو حال الأفلام الهوليودية التي تنقل معاناة الجندي الأمريكي في العراق الذي لا يرضى عن سياسات بلاده والذي يعاني من حالات أرق ونوبات هلع بسبب قتله لمواطنين أبرياء، ليدخل المشاهد بعدها في حالة تعاطفٍ مع الجندي الأمريكي الغازي الذي اعتدى علينا وتصبح المعاناة متساوية بين ضحية الطائرة وسائقها.

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

ويختم "مورغان فريمان" الفقرة المتعلقة بسلاح الجو الأمريكي بالجملة التالية:
"عبر الكشف عن الأعمال الداخلية لبرنامج الطائرات بدون طيار يمكننا أن نتوصل جميعاً لفهم عواقب استعمال آلات قتل عالية التقنية".

لا نعرف السر وراء استخدام المقدم لـ"نون" الجماعة في "يمكننا أن نتوصل جميعاً إلى فهم..." فمن عليه أن يفهم هو الإدارة الأمريكية تحديداً وليس "نحن".

يكمل فريمان الحلقة باستضافة البرادعي ليحدثنا عن نضاله في سبيل الحد من انتشار الأسلحة النووية خوفاً من وقوعها في أيدي متطرفين وإرهابيين متغافلاً عن الإرهاب والتطرف الأمريكي.

ويبدو أن البرادعي لم تسعفه نظارته لرؤية صور ضحايا نكازاكي وهيروشيما الذين قضوا بقنبلة نووية أمريكية.

يتم اختتام الحلقة الأولى من البرنامج باستضافة الرئيس الروندي الحالي متحدثاً عن الحرب الأهلية التي أودت بحياة مليون روندي، مقدماً لنا صورة تعلق بالأذهان حول مدى تخلف دول "العالم الثالث" كما يحبون تسميتها، وعن الصراعات العرقية والقبلية والتناحر بين أفراد المجتمعات الآسيوية والجنوب أمريكية والأفريقية.. طبعاً لا يمكن لمعدي البرامج الانتباه لقتل مليون عراقي على أيدي الأمريكان ولا لطوابير الشهداء الذين استشهدوا على أيدي الصهاينة.

تتمحور فكرة البرنامج حول "الإنسان" الذي ينتمي للعائلة الإنسانية الكبرى بعيداً عن الهويات القومية والبحث عن سبل إحلال السلام في العالم عبر تخليصه من العنف والكراهية.. عنف الإنسان وكراهية الإنسان لأخيه الإنسان.. بدل الحديث عن تخليص العالم من شرور الإمبريالية، وأن لا سلام بدون القضاء على مصدر الحروب، وحق الشعوب في تقرير مصيرها بعيداً عن الهيمنة الغربية التي تعمل باستمرار على زرع بذور الجهل والتخلف والنزعات العرقية والطائفية في الدول المتخلفة عامة ومجتمعاتنا العربية خاصة.

لا شك أن مقالاً ما، أو حتى سلسلة مقالات ومؤلفات، لا تكفي لمواجهة تأثير القنوات الإعلامية الكبرى فهي فعلياً تصل لقطاعاتٍ واسعةٍ من الشعب، لا بل أن جمهور الشاشات أكبر بكثير من جمهور المقالات، ناهيك عن الكتاب، لذلك يجب على المناضلين والقوى الوطنية أن يعملوا على خلق آلياتٍ نضاليةٍ مبتكرةٍ وفعالةٍ قادرةٍ على التصدي للسموم التي تبثها القنوات الاعلامية المشبوهة والتي تعمل كرديفة لقوات "حلف الشمال الأطلسي" عبر إعادة تدوير المفاهيم وإعادة تقديم الاحتلال في شكلٍ جديدٍ لجمهور الشاشة الواسع الذي قلما يقرأ والذي يصعب أن تصل إليه مقالاتنا.

ونلفت النظر هنا للكتاب الذي أصدره الدكتور إبراهيم علوش المنسق العام للائحة القومي العربي تحت عنوان "الرسالة السياسية لهوليود.. تفكيك الفيلم الأمريكي".

كما نلفت النظر للتجربة اللائحية الرائدة المتمثلة بنشاطٍ دوريٍ على شكل نادٍ سينمائي يهدف إلى بناء وعيٍ نقدي لدى الشباب العربي - الذي لا يمكننا حجب الأفلام الهوليودية عنه - حتى لا يقع فريسة للقنوات الاعلامية التي باتت تدخل بيوتنا بلا استئذان وتصيب عقول شبابنا بلوثات تهدف إلى تطويعه حتى يصبح أكثر قابلية للاحتلال.

طاقية تنوير

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

## الصفحة الثقافية: ثنائية الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم

**طالب جميل**

الغناء الحقيقي والملتزم بقضايا الأمة والملامِس لهموم الناس يحتاج لمنظومة عمل متكاملة تتكون بالحد الأدنى من شاعرٍ تجود قريحته بالأفكار والأشعار النابعة من الحس الوطني الحقيقي والقريبة من وعي الناس ومستوى تفكيرهم، وملحنٍ قادر على صناعة ألحانٍ خلابة تستطيع شد المستمع وإمتاعه، وحنجرة مغنٍ ملتزمٍ ومؤمنٍ بما يغني، قادرٍ على أداء الأغنية بشكل حماسي وبنَفَسٍ تحريضي خاصة إذا ما كانت نوعية الأغاني تحمل خطاباً وطنياً أو ثورياً.

وقد اجتمعت هذه المواصفات في الثنائي المصري المكون من الشاعر أحمد فؤاد نجم والمغني والملحن الشيخ إمام، فانطلقا منذ بداية الستينيات بحمل مسؤولية فنية ووطنية متعلقة بصناعة أغانٍ قادرة على تأجيج مشاعر الناس وبث الحماس في نفوس الشباب رغم صعوبة الظروف وشح الإمكانيات، مع الأخذ بعين الاعتبار أن فترة المد القومي التي كانت منتشرة في الوطن العربي وفي مصر تحديداً، ساهمت في استجابة الجماهير وقبولها لهذا النمط من الأغاني في حينها.

لم يكن الشيخ إمام قد جرب التلحين قبل معرفته بأحمد فؤاد نجم، وعندما عرض عليه الأخير بعض أشعاره بدأ بتلحينها حيث تعاونا معاً في البدايات في أغانٍ مثل (أنا أتوب عن حبك أنا، عشق الصبايا، ساعة العصاري)، ثم اتجه اهتمامهما بالأغاني ذات الطابع السياسي خصوصاً بعد حرب حزيران عام 1967، خاصة تلك التي تحمل طابع السخرية وذات النفس الانهزامي مثل (بقرة حاحا، الحمد لله خبطنا تحت بطاطنا)، وقد بدأ يلمع نجمهما في تلك الفترة بعد أن التف حولهما كثير من الطلاب والصحفيين والمثقفين.

استمر عملهما كثنائي في فترة السبعينيات التي كانت قاسية عليهما نظراً لقيام السلطات باعتقالهما وسجنهما عدة مرات، ولعل أغنيتهما الشهيرة (نيسكون بابا) التي كتبها نجم عند زيارة الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون إلى مصر وغناها الشيخ إمام كانت كفيلة باعتقالهما وإدخالهما والحكم عليهما بالسجن، وبعدها تم سجنهما مرة أخرى بسبب أغنية (الفول واللحمة) التي تحمل نقداً واضحاً وجريئاً للنهج الاقتصادي لنظام السادات في حينها، كما قدما بعض الأغاني الناقدة والساخرة والموجهة ضد السادات بشكلٍ مباشرٍ ايضاً والذي كان له نصيبٌ وافرٌ من النقد اللاذع والسخرية خاصة بعد حرب تشرين 1973 مثل (فاليري جيسكار ديستان، قوقة المجنون).

أصبح بعدها الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم ثنائياً لامعاً في عالم الأغنية السياسية ذات الطابع الشعبي البسيط التي تحمل في طياتها كثيراً من حب الوطن وتسكنها لغة الانتماء، ولم تكن مناسبة سياسية تمر دون أن يعلق عليها هذا الثنائي بأغنية، وقد يكون مصيرهما بعد ذلك السجن إلا أنهما في السجن أيضاً قدما بعض الأغاني السياسية التي اشتهرت كثيراً منها (حلاويلا يا حلاويلا، يا حبايبنا فين وحشتونا).

لاقت الأغاني التي يكتبها أحمد فؤاد ويغنيها الشيخ إمام استحسان الشباب، وأصبح أيقونات للهتاف في المسيرات والمظاهرات السياسية في أغلب أنحاء الوطن العربي، رغم معاداة كثير من الأنظمة لهذا النمط من الأغاني،

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

ولاقت بعض الأغاني ذات الطابع الثوري والحماسي والتحريضي جماهيرية كبيرة في الشارع العربي مثل (يا فلسطينية، رجعوا التلامذة، جيفارا مات، يا عرب، شيد قصورك، هما مين واحنا مين، هوشي مين) وبعض الأغاني التي تتغنى بمصر وجيشها مثل (مصر يما يا بهية، يعيش أهل بلدي، وآه يا عبد الودود، أنا الشعب ماشي).

على المستوى الفني تحولت العلاقة بين الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم إلى ظاهرة فنية ذات طابع سياسي أحدث نقلةً نوعيةً في عالم الأغنية السياسية في الوطن العربي رغم الحظر الإعلامي الذي تعرضا له لفترات طويلة ومنع اعمالهما من التداول نظراً للجرأة في كلمات الأغاني ونبرة الحدة العالية في النقد والسخرية التي يصعب على النمط التقليدي من السلطات تقبلها.

لقد تميزت أعمال (إمام ونجم) بالكلمة واللحن، فكانت الكلمة تتناول قضية سياسية – رغم وجود بعض الأغاني ذات الطابع العاطفي- وتتمتع بمستوى عالٍ من السخرية وبنزق ثوري حماسي، أما الموسيقى واللحن فكان له خصوصية وزخم موسيقي وبصياغة منفردة وأسلوب غنائي شعبي، وأما الأداء فلم يكن يعتمد على جمالية الصوت بقدر ما كان يعتمد على قوة الحضور والإقناع.

وتميز هذا النمط من الغناء بالبساطة وسهولة الوصول إلى قلوب المستمعين وقربه من همومهم وأحلامهم وبطابع احتجاجي تحريضي، لذلك عندما زادت الإحتجاجات الشعبية ضد اتفاقية كامب ديفيد في العام 1979 شارك الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم طلاب جامعة عين شمس الاحتجاج عبر السخرية من "عملية السلام"، وانتهى الحفل بالقبض عليهما والحكم عليهما بالسجن.

صوت الشيخ إمام لم يكن مدهشاً، وكلمات أحمد فؤاد نجم كانت تحمل مضامين قاسية وذات طابع انهزامي تشاؤمي، وفي كثيرٍ من الأغاني كانت هناك أصوات غريبة وشاذة عن ايقاع ومسار اللحن والأداء كان يحدث بعضها بشكل متعمدٍ يعكس حالة الفوضى والصعلكة التي عاشها الرجلان، والبعض الأخر مرتبطٌ بعدم وجود مؤثرات صوتية يمكن أن تعالج مثل هذه الأصوات، وعدم توفر الإمكانيات والتقنيات اللازمة لتسجيل الأغاني بحيث تخرج بشكلٍ نقيٍ وخالٍ من أي عيوب يمكن أن تؤثر على جودة الأغنية، لذلك لم تخضعْ أغاني (إمام ونجم) إلى المنطق الغنائي السائد في تلك الفترة، ولم يتعامل معها النقاد ويتم تقييمها من حيث جودتها الموسيقية أو مدى التزام ألحانها بجماليات الموسيقى العربية ولا من حيث جماليات الأداء، بل تم تقييمها من حيث قدرتها على استفزاز الشباب وتحريضهم ونقد أمريكا وعملائها في الوطن العربي ودعم الثورات الحقيقية التي حدثت في بعض الدول من العالم.

عموماً استطاع الثنائي إمام ونجم تقديم نمط متميز من الأغاني الناقدة والساخرة والساخطة ذات الطابع التحريضي للجمهور العربي، تحمل أبعاداً وطنية وقومية وملتزمة بقضايا الناس والوطن وقادرة على أن تثير الحماس في صفوف الشباب وتحرضهم على الاحتجاج والمقاومة والشهادة ورفض الواقع، وهذه النوعية من الأغاني نفتقدها في هذا العصر بسبب سطوة الإعلام الرأسمالي المأجور على المشهد الإعلامي والغنائي في الوطن العربي.

طلقة تنوير

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

## موقع تل براك الأثري: مدينة نجار والتمدن في منطقة الخابور الأعلى

**فارس سعادة**

تل براك تقع في الشمال الشرقي للجمهورية العربية السورية ضمن حوض نهر الخابور الأعلى أحد أهم روافد نهر الفرات، وتعتبر منطقة تل براك وما حولها من جغرافيا منطقة زراعية-رعوية تعتمد على مياه الأنهار للري لقلة الهطول المطري فيها.

سيطرت مدينة تل براك قديماً على البوابة الجنوبية لنهر الخابور وقد انتشرت القرى الزراعية والبلدات الزراعية حولها بشكل كثيف في فترات مختلفة من التاريخ القديم وتكاثرت هذه القرى أو انحسرت بحسب الوضع السياسي والبيئي للمنطقة. وشهدت منطقة تل براك أعلى كثافة سكانية لها وللمواقع التي تنتشر حولها في فترات سيطرة "حضارة أوروك" والفترة الآكادية لتصل عدد المواقع حول براك إلى 25 قرية وبلدة زراعية. وقد أثبتت الحفريات بشكلٍ قاطع أن براك شهدت "حضارات" أو ثقافات حلف، العبيد، أوروك، نينوى 5، آكاد وما بعدها، وكانت مسرحاً للأحداث الاقتصادية والسياسية في أغلب تاريخ المنطقة القديم وصولاً إلى الفتح العربي الإسلامي للمنطقة وإنهاء سيطرة الدولة البيزنطية على المنطقة إلى الأبد.

قبل الخوض في تاريخ الموقع وتاريخ الحفريات التي أجريت فيه يجب إيضاح معنى مصطلح "التمدن"، إذ انه مصطلح يحمل الكثير من المفاهيم المختلفة، بل والمتناقضة في أغلب الأحيان، فما هي العوامل أو الظواهر التي يجب أن تتواجد في موقع جغرافي استيطاني ما لكي يطلق عليه اسم مدينة أو "حاضرة" أو موقع متمدن وهل التمدن هو هو في أي مكانٍ أو زمانٍ؟

في الحقيقة إن ظاهرة التمدن لطالما تم ربطها بالكثافة السكانية وظهور الزراعة وتقنيات الزراعة وظهور الحِرف والتخصصية الحرفية والاقتصادية، وحتى الاجتماعية، ووجود مستوىً معينٍ من الإدارة "السلطة"، أي وجود "طبقية" تظهر الفوارق الاجتماعية بين الديموغرافيا، أي وجود تعقيد اجتماعي معين، ووجود مخطط مسبق للمدينة والعمارة من حيث هندسة البناء ودقته، ووجود المباني العامة والمعابد كـ"سلطة"، ومخازن الحبوب والطعام عموماً، ووجود تحصيناتٍ ذات أبعاد معينة "ضخمة"، وكل ذلك يشير في الغالب إلى تمدنٍ ذي مستوى معين بحسب علماء الأثار. وفي مستويات معينة، أي عند مستويات "أعلى" من "التمدن"، يصبح "المجتمع المثقف"، أي وجود الكتابة وأنظمة الإحصاء والعد، ووجود مبانٍ ضخمة من نوع "الزاقورة" وغيرها، شروطاً لا بد لها من التواجد لكي يستحق هذا المجتمع لقب "مجتمع متمدن".

ليس من العدل تصنيف المجتمعات البشرية القديمة بحسب شروط حديثة نسبياً وفرضيات أو حتى نظريات حديثة يمكن أن لا تعكس الماضي بشكلٍ دقيق بل من قبيل الإستحالة أن تعكس الماضي كما كان، وذلك ببساطة لأن غالبية ما تبقى من أثرٍ للماضي يتعلق بالسلطة وكبار القوم "طبقة النبلاء"، فاللقى الأثرية في غالبيتها هي معابد، قصور، بيوت، مدافن، أسوار، أرشيف كتابي.....الخ. لذلك يصمت الماضي عن حياة العامة من البشر إلا في القليل النادر من الأرشيف الكتابي أو بعض اللقى الأثرية مثل المدافن والتي لا تعكس الكثير مقارنة بمدافن "النبلاء" مثلاً من حيث المرفقات الجنائزية التي لا تتواجد عادةً إلا في مدافن "كبار القوم".

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

إذن لا يوجد تعريف واحد لمصطلح التمدن وإن كانت هناك صورة عامة متفق عليها حول طبيعة التمدن بشكل عام من حيث شرطية وجود بعض الشروط والعوامل التي تعكس نوعاً ما من "التمدن" والحضارة. والتمدن يختلف من حيث الشكل والمحتوى الثقافي من مكانٍ إلى آخر ومن زمان إلى آخر بحسب البيئة أو الظروف التي تفرض في بعض الأحيان على الإنسان القديم، أي أنّ الإنسان عاش بحسب ما يراه مناسباً هذا المجتمع أو ذاك، وكان يلبي احتياجاته بحسب ما يراه هو مناسباً وقتها لا نحن الآن، فإسقاط المصطلحات بشكلٍ عشوائي وميكانيكي يظهر أن الإنسان القديم كان إما متخلفاً أو متمدناً. براك أعطت لمصطلح التمدن معنىً جديداً من حيث الشكل والمحتوى فهي سبقت جنوب العراق بخطواتٍ لكنها توقفت في وقت معين بحسب ظروف الأرض والإنسان، إذ أنها تعكس سلسلة متتالية و"منهجية" للتغير الذي شهدته أرض براك من حيث التطور الاقتصادي-السياسي وبالتالي الاجتماعي، فأرض تل براك تعكس المراحل التاريخية الأولى للفترات القديمة، أي 2000-4500 قبل الميلاد، وهو عصر النحاس والبرونز المبكر وهي فترات ظهور المدن الأولى في منطقة الهلال الخصيب وبلاد ما بين النهرين.

تم اكتشاف مدينة براك "نجار" من قبل عالم الآثار البريطاني "ماكس مالوان"، وهو زوج الروائية البريطانية "آجاثا كريستي" عامي 1938-1937م. وقد شهد الموقع 14 موسماً للتنقيب الأثري بين عامي 1976-1993 تحت إشراف جامعة لندن، ومن ثم في مواسم أعوام 1994-1996م لصالح جامعة كامبريدج، وخلال الفترة ما بين 1998-2002م لصالح المعهد البريطاني لدراسة العراق. وخلال عام 2006 أصبح "أوغستس ماكماهون" المسؤول عن التنقيب في تل براك وما حولها، وقد أجري مسح آثري وصل لمساحة 20 كم حول المدينة من العام 2002-2005م تحت إشراف "هنري رايت". وقد توقفت الحفريات عام 2011 بسبب الحرب على الجمهورية العربية السورية.

بدأت ظاهرة "التمدن" في تل براك في نهاية الألفية الخامسة قبل الميلاد، وتحديداً في 4200-3800 قبل الميلاد، حيث تم العثور على "معبد العيون" وسط التل الأثري الأن، وعثر على عدة مواقع أثرية حول براك تشير بوضوح إلى أنها كانت قرى زراعية تحيط بالمدينة من كافة الجهات، إضافة إلى العثور على أنواع مختلفة من الفخار الذي صنع محلياً أو جلب "استيراداً" من جنوب العراق ومختلف مناطق سورية الطبيعية تقريباً. وهذا يشير إلى تعقيدٍ اجتماعي كبيرٍ في تلك الفترة من حيث مساحة الموقع الكبيرة التي تجاوزت الـ100 هكتار -تشمل القرى المحيطة- وهذه مساحة ضخمة جداً في تلك الفترة، ولم يكن أيُ موقعٍ يقاربها حجماً باستثناء موقع مدينة أوروك في جنوب العراق، وقد ساد النمط الريفي-الرعوي في منطاق الخابور وذلك إنعكاسٌ واضح للبيئة على الإنسان لذلك كانت براك مثالاً واضحاً على نمط تطور المدن ضمن نمط ريفي-رعوي غير مستقر من الناحية الإنتاجية.

نمط الاستيطان في تل براك يشير إلى وجود "مدينة" مركزية وسط التل الأثري تحيط بها عدة قرى زراعية خلال النصف الأول من الألف الرابع قبل الميلاد، وبعض البلدات الزراعية التي تعد أكثر تطوراً من القرى الزراعية، أي انها تكتلات لقرى كانت قائمة في فترة سابقة، تجمعت معاً لتشكل بلدة زراعية كبيرة. وهذا النمط الاستيطاني يعكس تعقيداً اجتماعياً واضحاً وعلاقات اقتصادية تبادلية تحتاج إلى "سلطة" لإدارتها وتوزيع الإنتاج بين القرى والمدينة وبين المدينة نفسها وباقي المواقع المحيطة بها خارج جغرافيا الخابور أو ضمنه. ومما دل على ذلك أثرياً هو العثور على أوعية لتوزيع المحاصيل انتشرت من منطقة الهلال الخصيب وبلاد ما بين النهرين.

هل سبقت تل براك جنوب العراق في «التمدن»؟ الجواب هو بلى، لقد سبقتها من حيث النمط الاستيطاني المتطور الذي يشير إلى تقسيمٍ وتعقيدٍ اجتماعيين بين السكان، فقد وجدت قرى زراعية وبلدات كبيرة وموقع مركزي «مدينة» يسيطر على المنطقة الجغرافية «الزراعية» بشكل ما. وهذا الحدث سبق أوروك بحوالي 500 عام، فبينما ظهرت مدينة أوروك التاريخية حوالي 3500 قبل الميلاد كانت تل براك مزدهرة -بشكل أقل من أوروك- حوالي 4200 قبل الميلاد، أي أن بذور التعقيد الاجتماعي وتواصله الزمني فترة طويلة بدأ في تل براك ولكنه لم يصل إلى مرحلة تسمح له بالتغير بشكل جذري لكي يصبح بحجم أوروك، وهذا قد يعود إلى أسبابٍ كثيرةٍ منها البيئة التي تقع ضمنها براك فهي منطقة زراعية-رعوية واسعة تقل خصوبتها وكمية إنتاجها عن مناطق جنوب العراق، ويمكن أن نرجع أسباب محدودية التغيير في منطقة تل براك إلى عوامل داخليةٍ «إداريةٍ» اجتماعيةٍ قد تكون حالت دون «التطور» على مستوى أكبر اقتصادياً وسياسياً، وهذا لربما يعود إلى طبيعة شمال بلاد الشام اجتماعياً والتشكيلات الاجتماعية الأساسية فيها زراعية-رعوية في الغالب.

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

إن ظاهرة التمدن الطرفية التي تقول أن التمدن يمكن أن يتشكل في الأطراف "جغرافياً" ويتسرب للمراكز وينطلق منها، لربما يعكس موقع تل براك من حيث أنه يتطرف منطقة الهلال الخصيب وبلاد الرافدين إذ تقع براك شمال بلاد ما بين النهرين وعلى أطراف الهلال الخصيب شمالاً، وهذا موقعٌ يصل بين المواقع الرئيسية التي ظهرت فيما بعد في غرب بلاد الشام والعراق قديماً. هذا الموقع سمح لها بالحصول على المساحة الكافية زمنياً وسياسياً للتطور بشكل تدريجي بحيث أنها تقع على أطراف المراكز المدنية التي تشكلت حولها.

ازدهرت تل براك "نجار" في الفترة الأكادية أي بعد 2300 قبل الميلاد، في فترة حكم الملك الأكادي نارام-سين الذي ينسب له علماء الأثار موقع "قصر نارام-سين" في تل براك، والذي يقع مباشرة فوق ركام "معبد العيون" العائد إلى نهاية الألف الخامسة قبل الميلاد، وهو مبنىً إداريٌ ضخم بُني في فترة حكم نارام-سين ووجدت فيه مخازن حبوب محصنة، وقد أصبحت تل براك في هذه الفترة عاصمة منطقة شمال آكاد، والتي على ما يبدو من آثار الدمار في أحد مواقع المدينة أنها كانت قاعدة الانطلاق للجيوش الأكادية لغزو مدينة إيبلا في الغرب السوري من حيث تزامن آثار الدمار والحرق بين مواقع تل براك وإيبلا السورية، والذي يرجعه أغلب علماء الأثار للملك نارام-سين وهو أول ملك "إله" في تاريخ المنطقة.

وجود منطقة حرفية "صناعية" ومعابد ومباني إدارية ضخمة في الفترة الأكادية وكثافة المواقع الاستيطانية حول تل براك في فترة آكاد نارام-سين تشير إلى الازدهار، وقد ورد ذكر اسم "مدينة نجار أو ناغار، نوار"، التي هي براك كما يبدو إلى الآن في الأرشيف الأكادي في مدينة سيبار الرافدية وفي أرشيف إيبلا وماري، وهو ما يكشف أهمية المدينة من حيث موقعها المتوسط بين كل هذه الحواضر القديمة.

لعل معادلة البيئة-الإنسان رسمت تاريخ براك الطويل فهي ملتقى الجماعات الرعوية والزراعية والهجرات من الأناضول شمالاً ومن العراق جنوباً وبوابة الخابور الجنوبية التي تمتد حولها سهولٌ زراعيةٌ واسعةٌ جداً بحيث يصعب التحكم فيها والسيطرة عليها بشكل مركزي قوي كما حصل في جنوب العراق، أو لعل الجماعات الرعوية التي كُتب تاريخها في هذه المنطقة ومنها انتشرت جنوباً لكي تؤسس الدولة البابلية القديمة. مبانٍ ضخمة ومعابدُ، مناطقُ متخصصة للصناعة، وأقدم الصهاريج المائية، كميات كبيرة من الفخار الذي يعود لحقب مختلفة، أحياء شعبية مخططة وتحصينات كبيرة، رُقُم طينية "كتابة" وأختام وتماثيل وغيرها من اللقى الأثرية وجدت في براك ولا يزال التل الأثري يحمل في جوفه الكثير من الأسرار التي ستظهر عاجلاً أم آجلاً لكي تظهر براك نفسها بشكل أكبر.

مدينة براك التاريخية تعكس التلاحم الثقافي والحضاري في المنطقة، هوية براك "نجار" الأثرية تعكس التمازج الثقافي بين الجنوب والشمال وبين المدينة والقرية، براك حملت الطابع الرافدي والطابع المحلي "السوري" في أختامها المحوّرة أو الهندسية، مبانيها عكست طابعاً أقليمياً لم يختلف عن غيره من مباني المنطقة في الفترات المتزامنة، وإن كانت البيئة تترك أثرها من حيث مواد البناء مثلاً.

حفريات مدينة براك تعطل أي فرضية أو نظرية تقع ضمن حدود سايكس-بيكو الحديثة، وحقيقةً قد تكون براك مثالاً جيد لنقد المحاولات الاستعمارية لرسم تاريخ قديم لكل منطقة بشكل منفصل عما يحيط بها، أي فصل تاريخ سورية القديم عن تاريخ العراق القديم، فبراك تجاوزت الحدود "الإثنية" والثقافية المغلقة، لقد تجاوزت براك "ثقافياً" منطقة الخابور وحملت معها "تثاقفاً" لكل الإقليم ما بين الأناضول-سورية-العراق وتأثرت بكل ما حولها. فهي بدأت مسيرتها للوصول إلى التمدن قبل مدن جنوب العراق إلا أنها لم تصل لأسباب تعود لربما للبيئة والجغرافيا أو لأسباب بشرية، وقد سبقت إيبلا وماري إلا أن المدينتين سبقتا براك في الإزدهار والتعقيد على كافة المستويات فيما بعد، ولكن لماذا؟ هل الجغرافيا هي الجواب أم الاقتصاد أم أنها جميعاً عوامل شاركت في تشكيل هوية براك التي لم تكن تعرف الحدود الحديثة المصطنعة. بحق لم تكن هناك هويات إثنية واضحة ولا حدود سياسية واضحة تصنف هذه الجماعات البشرية ضمن تصنيفات ضيقة أوجدت حديثاً لخدمة دول استعمارية ولخدمة أهداف اقتصادية بحتة وعنصرية استعمارية أوروبية؟

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

لعل عدم وجود سرديات تاريخية حول منطقة الخابور وبراك ساعد في ظهور براك على حقيقتها بلا أي تشويه مقصود، ولعل مقارنة تاريخ الحفريات الأثرية في براك من جهة وفي فلسطين من جهة أخرى في المنتصف الأول من القرن العشرين يوضح حقيقة تداخل السياسة بالآثار وتأثيرها على مسار الحفريات الأثرية. وإن كانت مدينة براك هي نفسها مدينة نجار التي ذكرت في الأرشيفات الرافدية السورية، فقد ذكرت بشكلٍ موجزٍ بالرغم من أنه دل على أهميتها إلا أن ذكرها لم يجلب لها أي مطمعٍ من قِبل المؤسسات الاستعمارية، فهي لم تكن مركزاً للبابليين أو الأشوريين الذين "سبوا" شعوب المنطقة، ولم تكن ممراً لنبيٍ أو شعبٍ ما. لذلك بقيت براك تروي تاريخها بحسب المادة الأثرية التي وجدت فيها فقط لا غير، ترفض أي سردية أخرى لعدم وجود مثل هذه السرديات التاريخية التي لو وجدت لما كانت براك وتاريخها الآن مكتوبين بالشكل العلمي والمنهجي رغم الاختلاف في الكثير حول براك وطبيعتها القديمة من حيث التمدن والإنتاج والديموغرافية إلا أنها بقيت نقيةً من أي تدخلٍ سرديٍ أو سياسيٍ.

طلقة تنوير

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

## منبر حر: التطبيع مع الإمبريالية وترويض المناضلين

### صالح بدروشي

كما يستوجب التطبيع مع الكيان الصهيوني استنفار جهود المناضلين الوطنيين لمقاومته، فإننا نلفت انتباه القارئ إلى وجود شكلٍ آخر من أشكال التطبيع غائبٍ عن أذهان الكثيرين، فكما يوجد تطبيعٌ مع الكيان الصهيوني هنالك أيضاً تطبيعٌ مع الإمبريالية يجب مقاومته بشكل أوكد لأن التطبيع مع الكيان الصهيوني يخصّ أو يستهدف العملاء والرجعيين الذين يسعون إلى إرساء علاقة ثقافية أو رياضية أو تجارية أو أكاديمية طبيعية مع العدو الصهيوني، ومحاولة إشهار أي شكل من أشكال التواصل مع الكيان الصهيوني وتطوير العلاقة معه لتصبح طبيعية، بينما التطبيع مع الإمبريالية قائمٌ مع هؤلاء الرجعيين، وهو مروّجٌ حتى شعبياً، ولكن الخطير في التطبيع مع الإمبريالية الذي نقصده هنا هو تطبيع المناضلين الوطنيين مع الإمبريالية، من قوميين ويساريين وإسلاميين تقدّميين يتمّ ترويضهم معنويّاً ولغويّاً وبصريّاً وحتى مادياً بدعوى "الاستفادة" من دعم المنظمات الدولية والحقوقية وإمكانياتها التي توفّرها وترعاها المؤسسات الإمبريالية. فهذا النوع من التطبيع ينخر الجسم الثوري في جوهره حيث ينزلق المناضلون تدريجياً وبسلاسة إلى المربع الذي يريده الإمبرياليون أعداء الشعوب، وذلك بشكلٍ غير واعٍ وبفعل الإمبرياليين وبمساعدة الانتهازيين الموجودين داخل صفوف المناضلين.

لقد بلغ بنا الأمر إلى أن تحصل منظمة نقابية تونسية معظم كوادرها من اليساريين والقوميين على جائزة نوبل (الإمبريالية) للسّلام لتتقاسمها مع منظمة "الأعراف" (منظمة تمثل رؤوس الأموال أكبر رمز كمبرادوري في تونس). وتقع استضافة المنظمتين في عديد بلدان العالم لتكريمهما سويّاً على نجاحهما في تمرير خدعة "الربيع العربي" وتسويقها للجماهير على أنها ثورة وانتقال ديمقراطي ناجح.

إنّ ما نلاحظه من بين نتائج أو مخرجات ما يسمى الحروب العالمية الكبرى، وما نتج عن الصراع الذي تلاها بين المعسكر الإمبريالي الغربي من جهة ومعسكر حركات التحرّر والأنظمة المستقلّة والأنظمة الاشتراكية من جهة أخرى، هو أنّ جزءاً كبيراً من الغلبة، لحدّ الآن، قد آل إلى الطرف الإمبريالي، وذلك بدليل هيمنة هذا الطرف اليوم بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وحلف الناتو، وبدليل التقدم الكبير الذي حققته الحركة الصهيونية في اختراق المنظمات الدولية وتدجين عدد كبير جدّاً من الأنظمة العربية وما يسمى بـ"العالم الثالث"، ونقول هذا بالرغم من التيار العالمي الصاعد للدول والحركات المستقلة والمناهضة للإمبريالية، من كوريا الشمالية إلى فنزويلا، ومن روسيا إلى الصين.

ومن بين ارتدادات هذه النتائج نودّ التركيز على الانتكاسة والانهزامية التي يشهدها وطننا العربي، منذ انهيار دول المنظومة الاشتراكية والعدوان على العراق ومعاهدات "السلام" مع العدو الصهيوني، في خندق المناضلين المدافعين عن الشعوب وعن الحقّ والمناهضين للظلم والتخلّف واحتلال الأوطان. في هذا المضمار تجدر الإشارة إلى أنه بفعل الدعاية الإعلامية للامبريالية "المنتصرة"، والتي تتقدّمنا بأشواط، أصبحت مفاهيم الثورة والكفاح المسلّح تُنعَت بأنّها لغةٌ خشبيةٌ من الماضي، ولم يعد لها مكان في عالمنا المتحضّر اليوم الذي تزدهر فيه الديمقراطيات العصرية، واحترام القانون! وأنّ المتغيّرات تحتّم علينا اتّباع المسار الديمقراطي الغربي. وأصبح "الصندوق" شيئاً مقدّساً، أهمّ من حرية الناس وأرواحهم وأرزاقهم، بينما تمّ دفع الثوريين إلى التنازل عن مصطلحاتهم ومفاهيمهم خوفاً من نعتهم باتباع الإيديولوجيا واتهامهم بالتكلّس وعدم الواقعية والجمود وعدم مواكبة متغيّرات العصر والتطرّف والشمولية.

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

نجد في المقابل أنّ الإمبريالية تحافظ على كلّ أنماط ممارساتها الاستعمارية الرأسمالية من استغلال ونهب مقدرات الأمم وشنّ الحروب على الشعوب الآمنة ودكتاتورية الشركات والبنوك العابرة للقارات (الاحتكارية) وهيمنة الدول الإمبريالية وتسخير المنظمات والمؤسسات والهيئات الدّولية لخدمة مصالحها... كلّ ذلك يتمّ تحت مسميات وواجهات جديدة ومحتوى أشدّ شراسة وفتكاً مثل: النظام العالمي الجديد - المجتمع الدولي (باحتكار حق النقض الفيتو) - الأمن والسلم الدوليين - التدخّل الإيجابي والتدخّل الإنساني - الحرب الاستباقية - محاربة الإرهاب (الذي تزرعه) - الاقتصاد الحرّ (الوحشي والاحتكاري) - العالم الحرّ (الهمجي بسيادة الأقوياء الأغنياء).. وبالمقابل يطلبون من مناهضيهم بأن يغيّروا محتوى أسلوبهم الكفاحي والثوري وليس مصطلحاته فحسب، كل هذا لأن الإمبريالية تسمّي الكفاح التحريري إرهاباً.

لا وبل نراهم عمدوا إلى سرقة المصطلحات وأصبح الحراك الرجعي ونشاط المرتزقة "ثورة"، كما في ليبيا والعراق وسورية، والثورة المضادة الاستباقية تسمّى "ثورة" كما في تونس ومصر.. والمجاميع المسلحة التي تموّلها الإمبريالية تسمّى "جيشاً حرّاً"، والثورة الحقيقية حين تستهدف الإمبريالية والمحتل الأجنبي تصبح في قاموسهم إرهاباً!

فلو أعملنا عقولنا قليلاً واحتكمنا إلى المنهج العلمي، سنجد أنّ المعادلة الرياضية والمنطقية: "ما أخذ بالقوّة لا يستردّ إلّا بالقوّة" لا تزال صالحة في عصرنا هذا، بل أنها تتأكّد كلّ يوم. وبما أنّ ما يُسلب من الشعوب من حقوق ومقدرات من طرف الإمبريالية يتمّ عن طريق القوّة الغاشمة، مثلما نشاهد في كل مكان من العالم، فإنّ استرجاع هذه الحقوق لا يمكن أن يتمّ إلّا بامتلاك القوّة وتفعيلها بالأسلوب الثوري الوحيد الكفيل باسترجاع الحقوق من الإمبريالية ورأس المال المستبدّ، وأنّ الدخول معهم في صراع سلمي عبر ما يسمّى بالديمقراطية والمؤسسات الدولية لم يحدث قطّ أن نجح في أيّ مكان من العالم ولن ينجح لأن الخصم يستعمل قوّة المال والسلاح بشكل مغلّفٍ بالقوانين، وبالتالي وبما أنهم يمتلكون مفاتيح ديمقراطيتهم فإن الغلبة سوف تكون لهم في أي عملية سياسية غير ثورية.

ولو أخذنا على سبيل المثال شعار العودة إلى فلسطين الذي تمّ التلاعب به كثيراً، فلا يسعنا في هذا السياق ووفق إعمال العقل إلّا أن نؤكّد ما كتبه الدكتور إبراهيم علوش في إحدى منشوراته: "لا عودة بدون تحرير، ولا تحرير إلا بالكفاح المسلح، ولا كفاح مسلح بدون بعد قومي عربي..".

ومن هنا فإنّ المناضلين والمفكرين الوطنيين مدعوون إلى إعادة تأهيل المفاهيم الثورية ووضع الحلول الكفاحية الثورية المناسبة لكل عدوان إمبريالي. وفي عملية إعادة التأهيل يجب الانتباه إلى المراوغات والمغالطات التي تقدمها الإمبريالية وأدواتها من عناصر الاختراق حين يؤوّلون إعادة التأهيل والتحيين على أنه تخفيف من حدّة المعاني وشراسة العداء وقوة ووضوح المصطلحات والابتعاد عن المسميات المباشرة .. بينما التحيين هو تطوير يضاهي تطوير الإمبريالية لأدواتها ويأخذ بعين الاعتبار موقعها الذي أصبح متقدّماً أكثر باتّجاه مواقعنا وتمكّنها من أدوات وإمكانيات أقوى وأشدّ فتكاً وبسط نفوذها بشكل أوسع على المؤسسات الدولية ومقدّرات الشعوب التي تضطهدها.

تجدر الإشارة إلى أن أحد المفاهيم التي استحدثها "الربيع العربي" هي أن الثورة عمل جماهيري عفوي ينطلق بشرارة عفوية! وعندما يتمّ افتعال الشرارة "العفوية" يضيفون إلى ذلك المفهوم أن لا أحد من التنظيمات ولا القيادات ولا الأحزاب له فضلٌ أو أي دخل فيما حدث وأن كل شيء طبيعي وعفوي .. وذلك لأجل إبعاد الجماهير عن أي قيادات وطنية يمكن أن تتقدّم لتأطيرها .. فالثورة هي عملٌ منظّم وليس عفوياً، وحتى عندما تبدأ الثورة بشرارة وتتحرك بها الجماهير الشعبية من خلال المجتمع لتطالب بالتغيير فإنّ من يمثّل إرادة الشعب من أحرار ومناضلين شرفاء يقودون التحركات التي ينشدون من خلالها الانتقال من حالٍ أسوأ إلى حالٍ أفضل، وهذا هو جوهر الفكر الثوري الذي هو بذاته جوهر إرادة التغيير نحو الأفضل بشكل جذري، أي أنّه من الصعوبة بمكان ترجمة الفكر الثوري إلى واقعٍ ملموسٍ من دون احتضان الحراك الثوري من قبل مناضلين قياديين ومفكرين ومثقفين يكون منوطاً بعهدتهم استخدام الفكر الثوري لاستنهاض عموم الشعب وقيادته نحو التغيير بالأسلوب الناجع، ووضعه على سكة المسار السليم للثورة بأدوات كفيلة بهزيمة أعداء هذا التغيير نحو الأفضل المنشود، وليس الثورة على الطريقة التونسية حيث يتراجع الشعب إلى حالٍ أسوأ بأضعاف المرّات ممّا كان فيه وعلى جميع الصعد حتى أصبح المواطن يتمنى العودة ليومٍ واحدٍ من أيامه ما قبل "الثورة" المزعومة.. ففي تونس، كما في مصر، يظهر جليّاً أنّ ما حصل هو ثورةٌ مضادةٌ استباقية، استبَقَتْ وقوع أي ثورة حقيقية على الوضع المحتقن بسبب سياسة النظامين الرجعيين في كلا البلدين غير أن ما حصل مكّن الشعب من اكتشاف ما هو أسوأ ممّا كانت عليه الأمور.

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

الإمبريالية العالمية تدرك جيّداً تناقضها مع القوى الوطنية المناضلة المدافعة عن حرية واستقلال الشعوب وإدراكها هذا جعلها تضع كل قواها في حربها على الشعوب الآمنة والخارجة عن سيطرتها مثل العراق وليبيا وفنزويلا وكثير غيرهم، وسورية التي لا زالت تشهد العدوان الشرس، وفي المقابل فإن معظم القوى الوطنية لم تدرك بعد أن الأولوية لحلّ كل مشاكلنا تكون بنصرة أيّ معركة ضدّ الإمبريالية والاصطفاف بشكلٍ آلي وبقوّة في الخندق المعادي للإمبريالية، وهذا يشمل كل مشاكلنا الاقتصادية والاجتماعية والفساد والبطالة والفقر والإرهاب والسيادة الوطنية والابتزاز الأجنبي بأنواعه الخ... والغريب هو أن يتعامى الكثيرون عن مدى وقاحة وشراسة العدوانية الإمبريالية وهي على الملأ وبكل نفاق تمدّ الدواعش بالسلاح وتدعمهم بالإعلام والكذب بلا حدود.. وعلى مرأى ومسمع الجميع يسخّرون سفنهم وطائراتهم لتهريب الدواعش من سورية إلى أماكن تدريب أخرى... أفيقوا يرحمكم الله فهؤلاء يبيعون القرد ويضحكون على من يشتريه.. وبعد دعم المجاميع المسلّحة لتهجير الشعب العربي السوري تنبري الدول الغربية في دور المنقذ والمساعد للشّعب المهجّر، فألمانيا التي تدّعي ذلك لا تقبل أي لاجئ إلّا إذا وقّع وثيقة يعترف فيها أن النظام السوري يضطهده ويقتل أهله؟!

عُرِف عن الإمبريالية مؤخّراً سعيها لفرض نموذجها "الديموقراطي" على الشعوب التي ترزح تحت سَطْوَتها، فهي لعبة تُتقِنها وتُمسِك بكلّ خيوطها، ففي مجتمعات متخلّفة مفقّرة "نُخَبها" مفصومة عن هوية شعبها وإعلامها تابعٌ لدوائر رأس المال، مثلما هو الحال في مجتمعنا العربي، يصبح من السهل تحريك الشعوب والسيطرة عليها عبر الإعلام والأدوات الناعمة لضمان بقاء وُكلاء الاحتلال في السلطة.

غير أنه أذا حصل وصادف أن لم تسر اللعبة الديموقراطية وفق ما يريد لها أسيادها أو انحرفت عن المسار الذي أُريد لها أن تمشي فيه تتحوّل الدول الغربية "الديموقراطية جداً" من راع للديموقراطية والصندوق إلى دول ثورية حتى النخاع تؤمن بالعنف الثوري، ولا تعترف بالنتائج الديموقراطية وتلجأ للقوة المادية لتحقيق مآربها مثلما حصل مع الثورات الملوّنة، وما حصل في ليبيا وسورية حين أصبحت فرنسا وأمريكا وبريطانياً من رعاة "الثورات" تسليحاً وتمويلاً وتوجيهاً.

فلماذا نلتزم بقواعدَ لعبةٍ لا يلتزم بها أعداؤنا إلّا في حال خدمت أهدافهم؟ لماذا لا تقوم القوى والأحزاب القومية بالانتفاض على الديموقراطية الغربية والعمل على تجييش وتعبئة الشارع تمهيداً لتثويره؟ فهذه هي اللعبة الوحيدة التي يمكن أن نمتلك مفاتيحها.

لماذا نعطيهم المشروعية بمشاركتنا في انتخابات لا نملك أدواتها ليتمّ تمثيلنا ببضعة أصوات قليلة لا تسمن ولا تغني من جوع تحت قبة مسرح يسمى بالمجلس النيابي نقوم فيه بلعب دور كومبارس أو شاهد زور على كّل ما تريد الإمبريالية تحقيقه بعد أن نقبل التصويت على خيانة الوطن ونشعر بنشوة عارمة عندما نرفع أصواتنا في وجه الفساد وبيع البلاد لنقول له "لا" بطريقة ديموقراطية، ويتم تمرير قرار بيع البلاد باحتساب الأصوات بطريقة "ديموقراطية" لتصبح القرارات "شرعية" أي ديموقراطية بفعل شهادة الزور التي أدينا. إنّ أهمّ مكسب تحققه الإمبريالية من مشاركة الشق الوطني في شكل ما يسمى معارضة أقلّية هو إضفاء "الشرعية" على الأغلبية من ممثلي الإمبريالية وجعل الخيانة وبيع السيادة الوطنية والتطبيع مع الصهيونية وجهة نظر تناقش وتحترم ويستفتى عليها وتنتصر وتُفرض على الشعب بالأغلبية "الديمقراطية".

المصيبة هو أن الشعب البسيط الذي لا يمتلك ثقافةً ولا وعياً ثورياً متقدّماً فَقَدَ الأمل في تغيير حاله عبر المشاركة في العملية السياسية الديموقراطية وفهم أنها عملية مزيّفة لا تعنيه من قريب ولا من بعيد وهو ما تعكسه نسب المشاركين في الانتخابات، في الوقت الذي يصرّ فيه بعض أدعياء الثقافة من المتلبسين بلبوس اليسار والقومية على أن مشاركتنا في اللعبة الديموقراطية واجبة ومطلوبة.

صدق الرفيق المعتز بالله العربي حين قال "الأسد الذي يزأر من داخل قفص السيرك الديموقراطي لا يخيف مروضه الأمريكي.. فمن يخيفه هو أسد البراري."

طلقة نور
لجنة الشبيبة العربي
www.qbeni.com
العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

## تاريخيّة السّيرة (6) – التّأسيس

**محمد العملة**

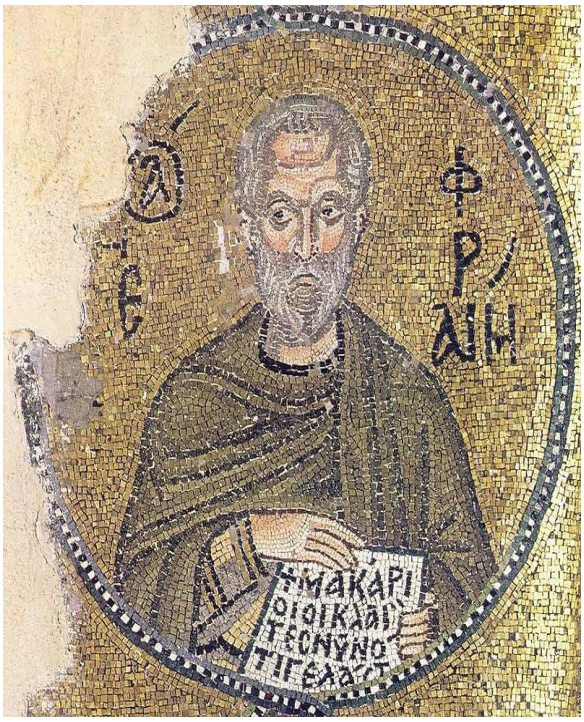


قلنا أن تأثير المسيحيّة العربيّة على القرآن الأولي، "أي في مرحلته المكيّة"، واضحٌ وكبيرٌ على مستوى الأفكار، وفي هذا الجزء سنلقي الضوء على هذه التأثيرات، لنبيّن الذي عناه "هشام جعيط" بقوله: "من دون المسيحية الشرقية السوريّة لم يكن ليظهر محمد"، ثم سنبدأ بالحديث عن أحداث السيرة نفسها اعتماداً على معطيات مصادرنا وبقراءةٍ تاريخيةٍ نقديةٍ لها، لنقارن ما فيها.

حسنا، لنقارب القرآن من وجهة نظر المؤرخ، نجده يتجّه إلى "أم القرى" بلسانٍ عربيّ، فتأخذ الرّسالة فيه طابعها القوميّ من هذا الوجه، أو يمكن القول أن الدعوة المحمديّة صيغة عربيّة للتراث التوحيدي العتيق.

هذه المسألة تطرح رهاناً كبيراً، في أن يكتسب العرب كتاباً ويكون لهم نبيّ؛ ليصبحوا على حالةٍ غير ما كانوا عليها في السّابق، أي انتقالهم من الجاهليّة إلى الوحدة، والجاهلية مفهوم قرآني بامتياز، لم يتبلور إلا في الفترة المدنيّة بعد الهجرة، لكنه مضمرٌ في نصوص الفترة المكيّة، حيث الجاهليّة جهل بالخالق، وجهل بالآخرة، وانتفاء للدين السماوي في الوسط الوثني.

سياق الجاهليّة على ما يبدو يتضمن أبعاداً فكرية ووجدانية أكثر منها سياسيّة، فهو إن كان مصطلحاً ظهر في قرآن الفترة المدنيّة، إلا أنه تعبيرٌ عن استنتاجاتٍ خالصةٍ لما يطرحه قرآن الفترة المكيّة، تلك الفترة التي تستجيب للتأثير المسيحي العربي المقترب من أصول المسيحية الأصليّة، والظاهر في النص المكيّ القرآني على شكل أفكارٍ متسلسلةٍ.

التأثيرات المسيحيّة:

يطرح القرآن المكيّ مجموعة أفكار عن اندثار العالَم واليوم الآخِر "القيامة أو الأبوكاليبس"، ويعالجها بطريقةٍ مختلفةٍ قليلةٍ عما هي عليه في الأدبيّات السماوية الأخرى بشكلٍ عام؛ فالقيامة في القرآن لوحةٌ فنيّةٌ أخّاذة في التعابير، يتجاوز فيها الطرح المسيحي السّوري رغم أنه يتفق معه في الجوهر، أو لنقل أنه يعبّر عن نفس الأفكار بصيغة أبلغ وأفصح.

لكن قبل الاستفاضة في الحديث عن التأثيرات المسيحية، يستوقفني تساؤلٌ وجيهٌ: لماذا يرى "جعيط" أن القرآن تأثر بالمسيحية السوريّة ولم يقل القبطية مثلاً؟

جواب السؤال مبنيٌ على ملاحظات أساسية أهمها أن القرآن يقول بأنه امتداد للرسالات السماوية السابقة له، امتدادٌ لأصولها قبل أن تدخل فيها اعتقادات مستحدثة، وهنا تبرز المسيحية السوريّة في أنها احتفظت بعناصر مهمةٍ من المسيحية الأولى، لكننا لا نجد هذه العناصر في النسخة القبطية من المسيحية، منها:

- أن الإله الخالق هو القائم بالحساب والحاكم على الخلق، وليس المسيح.
- الخشية من الحساب تدخل في أساس الدّين ومنظومة الأخلاق، وهو ما نجده في القرآن منوطاً بمعنى "التقوى"، والمشتقة من اتّقاء العذاب.

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

إضافة للعنصرين السابقين، يورد جعيط ما يطرحه المستشرق "تور أندريه" في كتابه "أصول الإسلام والمسيحيّة" من مقاربات يتشابه فيها القرآن في مرحلته المكيّة مع المسيحية السوريّة ويستند فيه على آراء وكتابات الدّعاة السوريين القدماء، أبرزهم "إفرائيم السّرياني"، وهنا يقول جعيط -ما معناه- أننا عند النظر إلى هذه التأثيرات بعين المؤرخ، فإننا نجد تشابهات عديدة من الصعب اعتبارها محض صدفة، ذلك أنها متسقة في الأفكار والصّور والتعبيرات، لعل أبرزها:

1. عند إفرائيم علامات الساعة كارثية، النجوم تتساقط، الجبال تذوب، والسماء تطوى، ونحن نجد هذه التعبيرات حاضرة بقوة في سور الفترة المكية كالانشقاق والانفطار والتّكوير.
2. بخصوص قيام الساعة، يقول إفرائيم بوجود نفختين في الصُّور، ودون الخوض في عدد النفخات هل هي واحدة أم اثنتان أم ثلاث، فإن التعبير حاضرٌ بنفس الشكل في القرآن.
3. أيضاً عند إفرائيم، الساعة تأتي بلمح البصر، والتعبير موجودٌ بين ثنايا النص القرآني مثل: "وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب".
4. "كيف استهزأنا عند سماعنا للكتاب (أي الإنجيل)"، هذا ما يورده إفرائيم، والقرآن يعبّر عن الفكرة ذاتها في مواضع عديدة، إذ الآثمون يلومون على أنفسهم استهزاءهم بالوحي.
5. الشّبه الكبير في وصف الجنّة، الذي لا يخلو من عنصر اللّذّة، وهو في صميم التصوّرين القرآني والمسيحي العربي. في هذه النقطة يعيب "جعيط" النظرة الأوروبية الاستشراقية التي تقول أن النظرة المسيحية للجنّة أكثر روحانية منها في القرآن بقوله: "لكن هناك مسيحيّة ومسيحية، وتطورات تاريخية داخلها، ونفس الشيء في الإسلام، إذ تموضع في القرون الوسطى كدين نجاة؛ فلم يكن يفكر المسلمون في نعيم الجنّة وإنما في النجاة من العذاب"، ونحن نجد في كتابات إفرائيم ما يتوجه به إلى رهبان يعانون التقشف، وكذا الحال في القرآن الذي يخاطب العرب في صحراء ذات شمس حارقة، بخيلة بالماء والكلأ عليهم وعلى أنعامهم.
6. القرآن يتحدث كثيراً عن "جنّة عدن"، وكذلك الدعاة السوريون يوردونها كثيراً بصيغة "فنّة عدن" -والفاء تلفظ V- كما هي مكتوبة في سفر التكوين، إذ أن العهد القديم لم يعرف جنّةً سواها، وسبب ذلك أن فكرة البعث والحساب حديثةٌ على العهد القديم، ولم تظهر إلا في القرن الثاني قبل المسيح، وهنا يأتي دور المسيحية السوريّة التي منعت تراث المسيحية الأصلي من الاندثار بإعطائها وصفاً دقيقاً للحياة الآخرى، لكن مرةً أخرى، نجد القرآن "الكتاب المقدس" الوحيد الذي يكرر مفهوم الآخرة ويلح عليه، وكأنه يسد فجوة في الموروث التوحيدي.
7. أن إفرائيم في كتاباته يركز على مفهوم "الغفلة"، غفلة البشر عن قيام الساعة، وهذا المفهوم الذي يعني عدم الاعتبار، النسيان وانتفاء الوعي مفهوم قرآني أيضاً.
8. "الزّهد" في القرآن يقترب كثيراً مما نراه في التصور المسيحي السوري، ومختلف تماماً عما هو في التلمود والتقاليد اليهودية التي نجد فيها أن صلاة الليل ليست إجبارية البتة، بينما نجدها محببة إلى الله وباباً من أبواب الزهد في التقاليد المسيحية والقرآن.
9. بعض العناصر اليهودية "الهجّادية" في القرآن كقصص الأنبياء آدم وإبراهيم ونوح لا توافق ما جاء في العهد القديم، ونلحظ هنا أن المسيحية السورية امتلكت هذه العناصر وعن طريقها مرّت إلى القرآن.
10. بعض القصص الأخرى في القرآن مأخوذة عن التراث المسيحي السوري؛ فقصة أهل الكهف مثلاً أوردها "أسطفيان الأفسسي" في الموروث المسيحي السوري، لكنها قصةٌ متأخرةٌ نسبياً؛ فالألواح المنقوشة عليها تعود للقرن الخامس الميلادي. "أسطفيان" يسميها بحكاية "فتية إفسس السبعة"، ويوردها لتأكيد معتقد قيامة الجسد في التقليد المسيحي الروماني الذي ساد على كل الأفهام المسيحية منذ القرن الرابع للميلاد، لكن القرآن يورد القصة للتأكيد على وحدانية الخالق ونفي كل ما يمس بهذه الفكرة.
11. التراث المسيحي السوري يعيب على اليهود تحريفهم الكتاب، وهو ما نجده بنفس الصيغة في القرآن أيضاً.
12. هناك تأثيرات أخرى زيادة على كتابات الدعاة السوريين، بعضها في الأناجيل الرسمية والمنحولة (غير المعترف بها)، وبعضها في كتابات مسيحية يمنية، إضافة لأناجيل عربيةٍ، لكن أقدم نسخة موجودة منها حُرِّرَت في الفترة الأموية. هذه التأثيرات تتضمن تشابهاً بين القرآن وحجج اللاهوتيين حول الخلق والبعث، وتعداد نِعم الله، وقصة مريم وميلاد المسيح الواردة في «إنجيل الطفولة» مثلاً.

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

رؤية خاصّة:

الكلام السابق يشرح وجود تأثيرات مسيحية عربية أو سورية في القرآن، ليست على مستوى الأفكار فحسب؛ إنما في الاستعارات المعجمية، حيث نجد اللهجة السريانية حاضرة بمصطلحاتها بشكلٍ أكثر بكثير من المعجمين العبري والإثيوبي، من دون إغفال وجود عبارات متقاربة أصلاً بين اللهجتين السريانية والعرباء الفصيحة -وكلاهما من وعاء لغوي واحد-، و"جعيط" في رده على بعض المستشرقين حول هذه المسألة لا ينكر أن تكون هناك استعارات لفظيّة، لكن ليس بطريقة أن كل ما في القرآن مستعار، فهو أغنى الثقافة الدينية العربية بمصطلحات جديدة، كما أن القرآن نفسه يفصح عن نفسه أنه "عربي اللسان"، فهناك عبارات قرآنية محضة، لكن من الممكن أنها دخلت من قبل في المعجم المسيحيّ العربيّ.

مع الأخذ بكل ما سبق، أي إقرار التأثير المسيحي، إلا أننا نجد القرآن يتخذ منهجاً توحيديّاً صارماً، فيبتعد عن المسيحية من هذا الوجه، ويرفض مماهاة الله بالمسيح، وهذا يفسر الصيغة القرآنية عن الله، التي يعبر عنها جعيط بقوله: "فالإسلام رجوعٌ إلى الإله الأصلي المتعالي، من فوق المسيحية، مع أنه ليس رجوعاً إلى اليهودية الوطنية (يقصد أنها منغلقة على نفسها). ولم يكن القرشيّون يعرفون الرحمن، فيقولون "وما الرحمن"، إنما يعرفون الإله السماوي العالي إذ هو من تراثهم العتيق؛ فالقرآن أراد المماهاة بين الله وألاه وبين الرحمن المسيحي، أي تجاوز "الله" القرشي الذي له جذور وثنية، وبالتالي ربط الصلة مع المسيحية مع إنكار التّجسيد".

خلاصة الأمر، أن القرآن يستعمل التراث بشقيّه الوثني والتوحيدي من دون أن يكون خاضعاً له، فهو يعدّل ويختار منه ويبينه برؤيته الخاصّة، وبذلك تترك أفكاره الأثر الديني في نفوس المتلقين، وهي أفكارٌ تعبر عن قراءةٍ خاصةٍ للتاريخ "المقدس" بمجهودٍ فكريٍ إبداعي، ومرة أخرى، المؤمن سيقول أن الله مصدر لكل الكتب السماوية، لكن المؤرخ يقف على النصوص ولا يتجاوزها، لذلك يكون الإقرار بوجود التأثيرات التي تحدثنا عنها أمراً مقبولاً تاريخياً، فالقرآن كنصٍ غنيٍ بأفكارٍ عديدة، ومن جهة أخرى هو معاصر للأحداث التي تم إبلاغ هذه الأفكار فيها، أي أنه معاصرٌ لمسار الدعوة، ومنه يمكن الوصول إلى سرديةٍ مقبولةٍ حول السّيرة.

أول الطريق:

من المهم تتبع التدرج في خطاب الدعوة بالمرور على المصطلحات القرآنية تبعاً لفترة نزولها، وهو أمرٌ صعبٌ قليلاً في المرحلة المكيّة من الدعوة، لأن القرآن في تلك الفترة أقل انغماساً في الأحداث التاريخية من قرآن الفترة المدنيّة، تلك الفترة السياسيّة المليئة بالأحداث، لكن تبقى هنا إشارات مهمة يمكن استخلاصها للحصول على معطيات ذات قيمة؛ فقرآن الفترة المكيّة يحوي مضمون وأفكار الدعوة ذاتها (التي ذكرناها في هذا الجزء)، وبالتالي الإفادة في رسم مسار للدعوة خلال المرحلة المكيّة المبهمة حتى في كتب السيّرة.

تاريخيّاً، هناك يقينٌ بأن الدعوة لقيت عداءً شديداً، وبأن جدلاً كبيراً كان قائماً آنذاك، لكن القرآن لا يورد التفاصيل حول ذلك في معظم كلامه، بل يولي اهتماماً للعبر والأفكار ليكونَ أثره على البشر متجاوزاً الظروف الزمانية والمكانيّة، وهذا ما يهم المؤمن العادي في الحقيقة؛ إذ يبحث عن طريق للنجاة في حياته وآخرته، وهو موقف الإنسان من التاريخ بشكل عام. لكن العلم يتعالى عن الحياة الإنسانية، وفي موضوع بحثنا، أهم شيء أتى به العلم الحديث هو تورخة القرآن، لعل أبرزها محاولة المستشرق "نولدكه" التي حسّنها وأضاف عليها المستشرق "بلاشير"، وفيها يرتبان سور القرآن تبعاً لفترات نزولها، فيأتيان على المرحلتين المكيّة والمدنية بشيءٍ من التفصيل، ويقسمان فيها المرحلة المكية إلى ثلاث فترات.

هناك اختلافات طفيفة بين تورخة "نولدكه" وتورخة "بلاشير"، فالأول يذهب إلى أن عدد سور الفترة المدنية يبلغ 24 سورة، أما الثاني فيراه 21، وما تبقّى بطبيعة الحال هو سور الفترة المكيّة. أهمية هذا التأريخ تساعد بشكلٍ حقيقيٍ على فهم تطور المصطلحات التي جاءت بها الدعوة، وعلى فهم أحداث الدعوة أيضاً، ولنأخذ الأمر بشيء من التفصيل.

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

الفترة المكيّة الأولى، قراءة نقديّة:

لا يأخذ "هشام جعيط" ببعض الاستنتاجات التي يذهب إليها "نولدكه" و"بلاشير" حول سور الفترة الأولى، منها:

● أنها لا تحمل إشارات حول فكرة التوحيد، لكن جعيط يخالف ذلك القول بوجود تلميحاتٍ قويّةٍ إلى التوحيد في آيات سور تلك الفترة، مثل: "فاعبدوا رب هذا البيت" و"فصلِّ لربِّكَ وانحر"، كما أن تسمية "الله" ترد في سورة التّين وهي من سور الفترة الأولى.
● أنها لا تتحدث عن عناصرٍ مشاحنةٍ مع قريش، لكننا نلحظ العكس، فسور الفترة الأولى تحمل انتقاداً لبعض السلوكيات الاجتماعية، وعطفاً على النقطة السابقة، فإن قلنا أن هذه السور تحمل إشاراتٍ إلى التوحيد، فمن المؤكد إذن أنها أدت إلى نزاعٍ ما مع قريش، حتى وإن كانت صيغة هذا النزاع مبهمةً في الفترة الأولى، لكنها جليةٌ وواضحةٌ في سور الفترتين الثانية والثالثة، حيث يعيب القرآن آلهة قريش بوضوح، ويكثر من استعمال مصطلحات "الكافرين، المشركين" ...إلخ.

يرى جعيط أنه إن وجدت تلميحات إلى التوحيد، فهي موجودة أصلاً في الفكر المحمديّ، وأنه إن وجد انتقادٌ للسلوك الاجتماعي والإنساني، فهو يعني أن قيم الرحمة والعدل موجودة، وأنه إن وجد غمز ولمز للنبيّ العربيّ، فهذا يعني أن قريشاً قامت بردِّ فعلٍ خفيفٍ على ما جاءها من دعوة. لكل ذلك، يعيب جعيط على المستشرقين قولهم بأن أفكاراً أساسية كالتّوحيد لم تظهر إلا شيئاً فشيئاً، وكأن الظروف أملتها على النبيّ أو أنه لم يتفطّن لها.

يرى جعيط أيضاً -اعتماداً على القرآن- أن الدعوة لم تكن سريّة بالمعنى الذي تنقله كتب السّيرة، وهو يطرح أسئلة مهمة هنا: كيف يمكن لبلدٍ صغيرٍ يُعرَف فيه كل شيء أن تكون فيه دعوة سرّيّة؟ وإذا كانت المعارضة للدعوة موجودةً، فكيف عرف المعارضون بأمر الدعوة وهي سريّة؟!

سريّة الدعوة تشير إلى ما هو غير علنيّ، أو غير رسمي إن أردنا الدقّة، والجهر بالدعوة إنما يقع أمام الملأ وقد حصل فعلاً، لكن كتب السيرة تقع في التناقض عند قولها أن قريشاً لم تنكر على النبي دعوته حتى عاب آلهتها وعاب الآباء والأجداد، أي أنها كانت تعلم بأمر الدعوة! لعل فكرة أن الدعوة سريةٌ مختلقةٌ من استقراء ما حصل لاحقاً من فتنةٍ وقمعٍ ثم تهجيرٍ للنبي وصحبه.

بالحديث عن الفتنة والتهجير، تورد كتب السيرة أنّ الهجرة إلى الحبشة حصلت بعد فتنة المضطهدين عن دينهم -لحوالي مئة شخص-، أي الذين بقوا على إسلامهم. القرآن يذكر أيضاً "السابقين الأولين"، أولئك الذين هاجروا إلى يثرب سوى الذين بقوا في الحبشة، وهنا نتكلم عن السابقين الأولين بوصفهم المضطهدين من غير الأشراف، لكن القرآن يورد أيضاً ما معناه أن النبي العربي توجه بدعوته إلى الأشراف من قومه ضمن سياق سورة "عَبَسَ"، وهي من سورة الفترة المكيّة الأولى.

مؤدى الكلام عن الهجرة والفتنة أن هناك بالفعل جماعة مؤمنة حاول المعارضون فتنتها عن دينها فهاجرت إلى الحبشة ثم إلى يثرب مع بقاء جزءٍ منها في الحبشة، أي أن الفترة الأولى كانت منغمسةً في الدعوة، وهنا تظهر إشكالية سورة "النّجم" التي يضعها "نولدكه" في الترتيب الثامن والعشرين، و"بلاشير" في الترتيب الثلاثين، ضمن سور الفترة الأولى التي تنتهي بسورتَيْ "الإخلاص" و"الكافرون"، فما معنى ذلك؟ ولماذا تفصح سورة "النجم" عن إشكاليّة؟!

هذا ما سنبيّنه في الجزء القادم.

يتبع..

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

## قصيدة العدد: البكاء بين يدي زرقاء اليمامة (أمل دنقل)

أيتها العرافة المقدَّسةْ ..
جئتُ إليك .. مثخناً بالطعنات والدماءْ
أزحف في معاطف القتلى، وفوق الجثث المكدّسة
منكسر السيف، مغبَّر الجبين والأعضاءْ.
أسأل يا زرقاءْ ..
عن فمكِ الياقوتِ عن، نبوءة العذراء
عن ساعدي المقطوع.. وهو ما يزال ممسكاً بالراية المنكَّسة
عن صور الأطفال في الخوذات.. ملقاةً على الصحراء
عن جاريَ الذي يَهُمُّ بارتشاف الماء..
فيثقب الرصاصُ رأسَه .. في لحظة الملامسة!
عن الفم المحشوِّ بالرمال والدماء!!
أسأل يا زرقاء ..
عن وقفتي العزلاء بين السيف .. والجدارْ!
عن صرخة المرأة بين السَّبي. والفرارْ؟
كيف حملتُ العار..
ثم مشيتُ؟ دون أن أقتل نفسي؟! دون أن أنهار؟!
ودون أن يسقط لحمي .. من غبار التربة المدنسة؟!
تكلَّمي أيتها النبية المقدسة
تكلمي .. باللهِ .. باللعنةِ .. بالشيطانْ
لا تغمضي عينيكِ، فالجرذان ..
تلعق من دمي حساءَها .. ولا أردُّها!
تكلمي ... لشدَّ ما أنا مُهان
لا اللَّيل يُخفي عورتي .. كلا ولا الجدران!
ولا اختبائي في الصحيفة التي أشدُّها ..
ولا احتمائي في سحائب الدخان!
.. تقفز حولي طفلةٌ واسعةُ العينين .. عذبةُ المشاكسة
( - كان يَقُصُّ عنك يا صغيرتي .. ونحن في الخنادْق
فنفتح الأزرار في ستراتنا .. ونسند البنادقْ
وحين مات عَطْشاً في الصحَراء المشمسة ..
رطَّب باسمك الشفاه اليابسة ..
وارتخت العينان!)

العدد رقم (47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

**فأين أخفي وجهيَ المتَّهمَ المدان؟**
**والضحكةَ الطروب : ضحكتهُ..**
**والوجهُ .. والغمازتانْ!؟**
*** * ***
**أيتها النبية المقدسة ..**
**لا تسكتي .. فقد سَكَتُّ سَنَةً فَسَنَةً ..**
**لكي أنال فضلة الأمانْ**
**قيل ليَ "اخرسْ .."**
**فخرستُ .. وعميت .. وائتممتُ بالخصيان!**
**ظللتُ في عبيد ( عبسِ ) أحرس القطعان**
**أجتزُّ صوفَها ..**
**أردُّ نوقها ..**
**أنام في حظائر النسيان**
**طعاميَ: الكسرةُ .. والماءُ .. وبعض الثمرات اليابسة .**
**وها أنا في ساعة الطعانْ**
**ساعةَ أن تخاذل الكماةُ .. والرماةُ .. والفرسانْ**
**دُعيت للميدان!**
**أنا الذي ما ذقتُ لحمَ الضأن ..**
**أنا الذي لا حولَ لي أو شأن ..**
**أنا الذي أقصيت عن مجالس الفتيان،**
**أدعى إلى الموت .. ولم أدع الى المجالسة!!**
**تكلمي أيتها النبية المقدسة**
**تكلمي .. تكلمي ..**
**فها أنا على التراب سائلٌ دمي**
**وهو ظمئُ .. يطلب المزيدا.**
**أسائل الصمتَ الذي يخنقني:**
**" ما للجمال مشيُها وئيدا ..؟! "**
**" أجندلاً يحملن أم حديدا .. ؟!"**
**فمن تُرى يصدُقْني؟**

العدد رقم ( 47) صدر في 1 نيسان عام 2018 للميلاد

**أسائل الركَّع والسجودا**
**أسائل القيودا:**
**" ما للجمال مشيُها وئيدا .. ؟! "**
**" ما للجمال مشيُها وئيدا .. ؟! "**
**أيتها العَرافة المقدسة ..**
**ماذا تفيد الكلمات البائسة؟**
**قلتِ لهم ما قلتِ عن قوافل الغبارْ ..**
**فاتهموا عينيكِ، يا زرقاء، بالبوار!**
**قلتِ لهم ما قلتِ عن مسيرة الأشجار ..**
**فاستضحكوا من وهمكِ الثرثار!**
**وحين فُوجئوا بحدِّ السيف: قايضوا بنا ..**
**والتمسوا النجاةَ والفرار!**
**ونحن جرحى القلبِ،**
**جرحى الروحِ والفم.**
**لم يبق إلا الموتُ ..**
**والحطامُ ..**
**والدمارْ ..**
**وصبيةٌ مشرّدون يعبرون آخرَ الأنهارْ**
**ونسوةٌ يسقن في سلاسل الأسرِ،**
**وفي ثياب العارْ**
**مطأطئات الرأس.. لا يملكن إلا الصرخات الناعسة!**
**ها أنت يا زرقاءْ**
**وحيدةٌ ... عمياءْ!**
**وما تزال أغنياتُ الحبِّ .. والأضواءْ**
**والعرباتُ الفارهاتُ .. والأزياءْ!**
**فأين أخفي وجهيَ المُشَوَّها**
**كي لا أعكِّر الصفاء .. الأبله.. المموَّها.**
**في أعين الرجال والنساءْ!؟**
**وأنت يا زرقاء ..**
**وحيدة .. عمياء!**
**وحيدة .. عمياء!**

## كايكاتور العدد

## انتهى العدد